مجموعة قصصية

لغةُ الأرض

مجموعة قصصية

لغة الأرض

مجموّعة قصصية

علي حسين عبيد

تصميم الغلاف: د. عبد الله رجب

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 3088/ 2021

الترقيم الدولي: 7- 39 -6798-977-978

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

لغة الأرض

المجموعة الفائزة بجائزة الطيب صالح

الدورة التاسعة 2018

علي حسين عبيد

الفؤاد للنشر والتوزيع

إهداء...

أربعون سنةً مضتْ،

قضيناها معًا تحت سقفٍ واحد،

في بيتٍ واحد، وغرفةٍ واحدة،

عاشت معي أغلب أحداث قصص هذه المجموعة،

واجهت الرصاص والقذائف والجوع بشجاعة،

أنقذتْ أولادها – بغيابي- من موت بلا ضمير كان يتربّص بهم،

لا يوجد مَنْ يستحق إهداء هذا العمل أكثر منها..

إلى كريمة، زوجتي التي لا تتكرر.

أنينٌ متوارَث

بدأ الأنين خفيضاً مكتومًا مليئًا بالرجاء، في البدء لم أتنبّه لمصدره أو نبرته، ربما يتماوج من مكان بعيد، هكذا خيّل إليّ، لكنني أعرف هذا الصوت، وأعرف مصدره، إنه جزء مني، ومع أن الجميع يئن ويتوجّع هذه الأيام، وأننا اعتدنا الأنين منذ سنوات موغلة بالقِدَم، لكن هذا الأنين يضرب أعماق روحي، ويصفع سويداء قلبي، إنه يصدر من امرأة تجاوز حَملها الوقت المسموح، لم يخطر في بالي أنّ بيتاً طارئاً واطئاً أقمناه - بسبب النزوح- في صحراء قصية سوف يكون مكانًا لمخاض أقرب الناس إلى نفسي، إنها شقيقة الروح والقلب والجسد، قفزتُ من مكاني كالملسوع، وصرختُ على الجميع أن ينهضوا من النوم، نهضوا جميعا، خرجوا من فتحة البيت النايلون الواطئ ودخلوا في حالة إنذار قصوى، الظلام يسود مثلما تسود الحرب على كل شيء، رأيت إحدى النازحات تقترب من شقيقتي، ثم هرعت إليَّ وقالت:

ـ شقيقتك في حالة مخاض، أتوقع أن تلِدَ قريبا.

أخذني صديقي جانبا، وأخبرني بكلمات لم يرد بعضها في بالي، ليس سهلا أن تلد امرأة في هذا المكان الصحراوي الذي يفتقر لكل شيء، لا طبيب، لا أجهزة توليد، لا أدوية من أي نوع كان، ثم لا توجد قابلة لها خبرة في التوليد، الأمر في غاية السوء، الظلام يفرض سطوته على المكان، لا نجوم ولا قمر ولا مصابيح من أي

نوع كان، برد ربيعي لاذع يصفع وجوهنا، شعرتُ أن صديقي لديه ما يقوله لي فسألته:

ـ ماذا نفعل في هذا الليل البهيم، دلّني على حل؟

نظر في عينيّ، كأنه يبحث عن شيء ما، ثم قال:

ـ أليس لديك معارف هنا؟

ـ معارف؟! ومن هم معارفنا؟

ـ صاحبة المزرعة؟

ـ هل يمكن أن تنفعنا؟

ـ لنجرّب، ربما يمكنها مساعدتنا.

عند باب المزرعة القريبة، نقف الآن معًا، أنا وصديقي، إلى جانبينا ينهض خيالان قلقان مترددان يصنعهما ضوء شحيح ويعكسهما جدار المزرعة، أشعر بشيء من الخجل، ولكن في الوقت نفسه أشعر أن صاحبة المزرعة ليست غريبة، إنها جزء منا ولا بأس أن تشترك معنا في المواقف العصيبة، في بعض الأحيان قد يستحي الإنسان حتى من أقرب الناس إليه، طرق صديقي على باب المزرعة بهدوء، لا جواب، طرقتُه أنا بقوة، وكررتُ ذلك أكثر من مرة، رأيتُ من خلل سياج السعف فانوسا يضيء الدرب لامرأة ثلاثينية تتقدم إلينا وتعلّق على كتفها رشاش كلاشنكوف، وشرعتْ تسأل:

ـ من يطرق الباب في هذا الليل؟

ـ أنا الطارق.

رأيتها تعود إلى الكوخ مسرعة وتخرج إلينا في خطوات أسرع، يبدو أنها تخلّصت من الرشاش، رحّبت بنا مندهشة مما تراه:

ـ هل من شيء؟

ـ نعم أختي تعاني نوبات الطلق.

ـ الآن؟

ـ نعم الآن.. ولا نعرف ماذا نفعل أو إلى أين نذهب، لا طبيب ولا قابلة، أخشى أن يصيبها مكروه.

ـ لحظات سوف أخرج معكما.

خطونا معًا في أعماق الصحراء المحاصرة بالبرد، لم تقل صاحبة المزرعة إلى أين تسير بنا، كان صوت الأنين يطرق سمعي بشدة، خفتُ على شقيقتي من الموت الذي تتمناه هي وأخشاه أنا، لا شك أن الكلام المجرّد يختلف عن مواجهة الحقيقة، فالإنسان يعلن مواقف كثيرة بلسانه ولكنها عندما تُصبح حقيقة سوف يتراجع عمّا لفظه لسانه، شقيقتي تمنّت الموت في النهار الفائت، وها هو يفاجئها في الليل ويصبح حقيقة لا مفر منها، قلت للمرأة التي رافقتنا:

ـ أخشى على شقيقتي من الخطر الذي يحيق بها، ماذا ستفعلين؟

ـ هدّئ من روعك، سوف نجد حلًا.

قطعنا مسافة ليست بعيدة نحو مزرعة أصغر مساحة، استطاعت صاحبة المزرعة أن تحصل لنا على سيارة قديمة، وطلبت من السائق أن يتوجّه بنا إلى مزرعة (أم سعد)، ورَجتْه أن يقود السيارة بأقصى سرعة ممكنة مع التنبّه إلى الكثبان الرملية في الطريق، وصلنا المزرعة المقصودة، نزلت المرأة وطلبتْ مني أن أرافقها، طرقتْ على باب المزرعة، صاح صوت رجل:

ـ من في الباب؟

ـ أنا جواهر أريد أم سعد.

بعد دقائق خرجت أم سعد تلّف كيانها كله بالسواد، لم أر شيئا منها، كانت غائبة في الظلام، تحدثت معها جواهر عن حاجتنا لها، لم تتردد قيد أنملة، دقائق قليلة وانطلقنا إلى بيت النايلون الواطئ، وما أن وصلنا طلبت القابلة أم سعد أن نسخّن (قِدْراً) من الماء على الفور، ودخلتْ هي في بيت النايلون الواطئ، فأشعلنا النار بما تبقّى لنا من حطب، وهرع آخرون لجمع المزيد منه، ثمة صراخ يشق عنان السماء، موجات صوتية هائلة تندفع نحو الأعالي، تشق طبقات الظلام، حتى كأنني أرى تلك الموجات وأكاد أمسكها بيدي، نعم يمكن أن نمسك الصوت أحيانا! نوبات الطلق تتواصل، الصراخ يتوقف ويعلو ثم ينطلق عاليًا، القلوب تتقافز بين الضلوع، أرواحنا قلقة مستفَّزة، لا نعرف كيف سينتهي الأمر، أطبق صمت ثقيل على سقف البيت الواطئ، وفي داخله ران صمت أكثر ثقلًا، لا صراخ، لا أنين، ولا حتى كلمة واحدة، هذا النوع من الصمت جرّبناه سابقًا، إنه مخيف ويُنْبئ

بحادث جلل، لا أريد الصمت، أنا أكرهه حقًا، هكذا رحت أصيح بصوت مكبوت تندفع موجاته الخرساء في الفناء الصحراوي الواسع، أنا أريدُ الصراخ، كلّنا نريد ذلك، ليعدْ يطرق سمعي، الصراخ والألم أفضل من غدر الصمت المفاجئ بكثير، تقدمتُ نحو فتحة البيت الواطئ، كدتُ أرفع نايلون الفتحة الصغيرة كي أرى ما الذي يحدث داخل هذه الزريبة الواطئة، لا أعرف ما الذي منعني عن فعل ذلك، بغتة هرعتْ إلينا (أم سعد)، قالت والرعب يكتسح صوتها:

ـ الجنين لا يتحرك كأنه حجر.

ـ هل هو ميّت؟؟

ـ أتوقع ذلك بنسبة عالية.

ـ وأم الجنين؟

ـ نبضها ضعيف جدًا، وقلبها ينازع من أجل البقاء.

ـ وما العمل؟

ـ نحتاج لطبيب وأجهزة مساعِدة، يجب أن ننقلها فورًا إلى مستشفى الولادة.

ـ لا توجد مستشفى، الجميع فرّ منها هربًا من القتل.

ـ علينا أن نبذل ما بوسعنا لإنقاذها.

ـ هل تعنين أنها ستلقى حتفها؟

ـ إذا لم نجد لها طبيبًا أو مستشفى.

ـ لكن هذا مستحيل في هذا الظرف، ثم لا توجد مستشفى ولا أجهزة توليد بعد تدميرها.

ـ إذاً ستبقى أم جلال بين يدي ربّها....

ـ يا إلهي!

في لحظات القنوط التي نعيشها الآن، هذه اللحظات التي هيمن فيها البؤس والقلق والخوف والموت على العالم بأسره، في هذه اللحظات المنحوتة من اليأس المطلق، قد تمنحنا الأقدار فرصة أخيرة أقرب إلى المعجزة أو هي المعجزة بعينها، والأغرب في هذا أننا لم نكن بانتظارها، ولم نتوقع حدوثها لأنها كالمستحيل أو أقرب إليه، ربما تحدثُ هذه المعجزة، فتغيّر كلّ شيء رأسًا على عقب، لدرجة أن الموت قد يتحول إلى حياة، والظلام إلى ضوء، واليأس إلى أمل، والخوف إلى قوة، وها هي تحدث بالفعل، في لحظة فقدْنا فيها الأمل بكل شيء، إلّا من ذلك التشبث المستميت بنبض الحياة حتى آخر الأنفاس، ففي غمرة حالة الترقب والقلق والخراب وضياع الرجاء، ينبثق ضوء ضئيل للأمل، ما يلبث أن يشعّ.. ينمو.. يكبر.. يتصاعد، لتنطلق صرخة وليد جديد، كأنها صرخة جنين أزلي تراكمت منذ بدء الخليقة وانطلقت اللحظة، كي تتحدى الحرب وكل أشكال الموت الأخرى، صرخةٌ بِكْر تخرج من باب البيت النايلون الواطئ لتفيض في الصحاري الواسعة، تنتشر في البوادي والغدران والسهول، لتنشر الحياة الأبدية في هذا الخلاء المترامي.

لاحت خطوط ذهبية في الأفق البعيد، حيث تقبّل السماء وجه الصحراء، نهضت الشمس بكامل أبَّهتها، لتعلن الضوء عنوانًا لحياة جديدة، طلبتْ أم سعد قطعة قماش منسوجة من القطن كي تلّف بها الوليد، كان طلبها البسيط هذا عسيرًا، إذ من المستحيل أن نأتي لها بما طلبت، ثم على الفور خلعتُ سروالي فهو مصنوع من قماش القطن، لا أعرف كيف فكرتُ بهذا الحلّ، أعطيته للقابلة عن طيب خاطر، فأشرق وجهها بتباشير فرحة مفاجئة كأنها عثرت على لؤلؤة في أعماق البحر، أم سعد أنهت عملها الآن وطلبت الأذن بالمغادرة، أعطاها صديقي مبلغًا من المال، فرفضت ذلك بكرم امرأة واثقة من نفسها، وقالت:

ـ في هذه الظروف أنا أعمل لوجه الله فقط.

صاحب سيارة الأجرة رفض أيضا أن يأخذ أجرة عمّا قدّمه لنا على الرغم من إلحاحنا عليه، أثلج صدري هذا السلوك الإنساني في هذه الأوضاع الحرجة التي تحاصرنا، وجدّد الأمل بأننا في يوم ما سوف نكون أفضل، وسوف نسامح بعضنا، سنعالج الجروح التي أدمتْ أجسادنا وأرواحنا، هناك في أعماق الإنسان رغبة للتمسك بالخير والعمل به، هذه الرغبة لم تغب في ليلتنا الصعبة هذه.

بدأت تباشير الشروق تعلو وتكبر وتنمو وتصبح أكثر حضورًا، وبدت أكثر بهجة حيث الضوء شرع يغسل وجه الأرض، ينظّفهُ مما لحق به من بثور، ويشفيه مما لحق به من كدمات، وحيث النسيم البرّي يداعب الوجوه والأرواح معا، غفتْ شقيقتي وسكن وليدها في حضنها، ومضتْ جواهر إلى مزرعتها، مهرجانًا عارمًا

للفرح نعيشه الآن، في وسط النهار استيقظت شقيقتي، دخلنا عليها، حمدنا الله على سلامتها ووليدها، كان جنبها مغمض العينين، وجهه نحو السقف، قلت لها محاولا رفع معنوياتها:

ـ إنه يشبه أباه.

لم تجب بشيء، تقاطرت الدموع من عينيها، تنبّهتُ إلى خطئي، ليس صحيحًا أن أذكرها الآن بزوجها الذي خطفته الحرب، حاولتُ معالجة الموقف، لكنني فشلت، فقد كان قلبها يبكي بصوت مسموع.

مدن البارود

الارتباك والقلق يعبث بنا، السيارة تنطلق بنا نحو المدينة، وثمة سيارات قادمة من المدينة مصابة بالذعر، أكفّ الناس تطالبنا بالعودة وعدم مواصلة الطريق، تكرر هذا التحذير مرارًا لكن السائق أصرّ على مواصلة السير لأمرٍ نجهله، بقي أقلّ من ألف متر ونصل بوابة المدينة الغربية، ظهرت خيوط دخان أسود ورصاصي تتصاعد من أماكن وبنايات متفرقة، سمعنا أصوات رصاص متقطع ومستمر، فعرفنا أن المدينة تعيش حالة من الفوضى، فكرتُ بالمخاطر التي قد تودي بحياتنا، خطرَ في بالي العودة أنا وأخي الأصغر وعدم الدخول في المجهول، لكن وجود أمي وطفليّ وأخواني داخل أحياء المدينة أجبرني على دخولها، فلا مجال لتركهم في هذه الأوضاع المرتبكة، وحين استشرتُ أخي يوسف بالعودة إلى المكان الذي أتينا منه رفض ذلك البتّة، لم تصل بنا السيارة إلى البوابة، أُنزِلَ الركاب على بعد مئة متر عنها، تقدمنا بخطوات متعثرة نحو المدخل القريب، تحسّس أخي يوسف المسدس المثبت في حزامه من جهة الخاصرة اليسرى، ونبّهني على أن أثبّت سلاحي جيدًا وأخفيه تماما، تنبّهتُ إلى ملابسي النظيفة وذقني المحلوق وكذلك يوسف، التعب والإجهاد يلوح في الوجوه والأجساد من حولنا، راودني تردّد في المضي قُدُما، ولكن لا نمتلك خيارًا بديلًا، دخلنا مركز المدينة على مضض والذهول يتلبّس كِلَيْنا، شارعان معبّدان متوازيان تفصلهما جزرة وسطية خرسانية، لم تتوقف لعلعة

الرصاص وقذائف الهاون وأسلحة أخرى لا يُعرَف نوعها أو حجمها تسقط في أماكن متفرقة، المحال كلها مغلقة، والشوارع مهجورة، خطونا بضع خطوات على وجل، فدخلنا بأرجلنا في الفخ، تقدّم إلينا شخص من بين مجموعة أشخاص يشهرون السلاح بقلق ورعب، كان يحمل في يده (رشاش كلاشنكوف) ويرتدي حزامًا من الرصاص، عيناه ينبثق منهما غضب مستعرّ، تختلط فيه مشاعر شتى، بغتةً صرخ بنا:

ـ هيا، تجمّعوا هنا في هذا المكان.

وراح يشير بيده كي نسرع في التجمع، كان بوضع غير مستقر، عيناه ترمشان بخفة، ينزّ منهما قلق مكبوت، لاحظتُ عتلة أمان السلاح مفتوحة، رفع الرشاش قليلًا إلى الأعلى وضغط على الزناد، فانطلقت (رشقات) رصاص متلاحقة، ثمة نار تلهب رؤوسنا، الأشخاص الآخرون في المجموعة أخذوا يطلقون الرصاص بشكل فردي، احدهم وجّه رشاشه نحو لافتة قريبة وأطلق عليها النار، القلق هيمن على الجميع، وكان ذلك الشخص الذي تقدّم إلينا ينظر نحو أخي يوسف بتوجّس، يدقق في ملابسه النظيفة وذقنه الأملس ثم ينقل بصره إليّ، أشار بيده مجددا أن نقترب منه ونصطف معا، تجمّعنا مع بعضنا، بحدود ستة إلى سبعة أنفار كلّنا كنا في السيارة التي أقلتنا من الريف إلى المدينة، قلت لنفسي، إنه يتهيّأ لتفتيشنا، سوف يعثر على مسدسي، وهذا يعني مواجهة مصير مجهول، وفي لحظة خاطفة قفز بجسده إلى الأعلى، راكلا الأرض بقوة، صدح صوته بأهزوجة ضاعت كلماتها في

خليط الأصوات التي ضجّ بها فضاء المدينة، أحاط بنا الآخرون شاهرين أسلحتهم إلى الأعلى صَوْب جهات متفرّقة، صرخ جاحظ العينين، هيا أطلقوا أصواتكم، ضرب الأرض بأقدامه مجدَّدا، وراح يتقافز أمامنا رافعا إحدى يديه عاليا هاتفاً بأهزوجته، شعرنا بمزيج من الذهول والتردد، كانت يدي اليمنى تستقر على المسدس في خاصرتي، لاحظتُ أخي يوسف يضغط بيده على سلاحه أيضا، حالة التوتر التي يعيشها هؤلاء الأشخاص تؤكد أنهم سوف يبطشون بنا إذا عرفوا أنني ضابط في الجيش وأخي كذلك، في هذه اللحظات أقبلت سيارة حمل صغيرة مسرعة من مركز المدينة، احتشد في حوضها الخلفي مجموعة شباب يشهرون السلاح نحو الأرض وإلى الأعلى، ضغط السائق على الكابح بشدة فأحدث صوتًا حادًا عاليًا كمن يتفادى حادث اصطدام، توقّف على أثره ذلك الشخص الذي أطلق الهتاف، أوقف هتافه وتقرّب من سائق السيارة، وسأله بصوت عال قلق:

ـ هل جلبتَ لنا سلاحاً وعتاداً؟

أجابه السائق:

ـ كلا.

فأصيب جاحظ العينين بنوبة صراخ رافقها سباب طال السائق وكل من كان معه، في اللحظة نفسها نظرتُ يمينًا فرأيت زقاقًا جانبيًا يذهب بنا بعيدًا عن هذا الشارع العريض المدجج بالرصاص العشوائي وأنواع الأسلحة، طلبتُ من يوسف أن

يتعقَّبني، خرجنا من المجموعة التي تفرّقت بعدنا مباشرة، كان جاحظ العينين لا يزال مشغولًا مع السائق بعدم جلب السلاح، دخلنا الزقاق وأزيز الرصاص يلاحقنا، مضينا في العمق ثم استدرنا يسارا وغذّينا السير إلى الأمام، مررنا بالقرب من حاوية قمامة، دهمتنا منها رائحة نتنة حادة، أغلقتُ أنفي لا إراديًا وكذا فعل يوسف، رأيت ما يشبه الذراع المبتورة ملطّخة بالطين وملقاة بالقرب من الحاوية، كانت الأصابع منكمشة مكوّرة تقبض على شيء ما، ورأيت بركة دم صفراء تحيط بأسفلها، فوق رؤوسنا سقف من معدن (الجينكو) بدا مثقّبا، سرتُ إلى جانب الجدار وأخي خلف ظهري، أتحاشى (رشقات) الرصاص التي لا أعرف تُطلَق من أين وعلى مَنْ، الرصاص يتساقط علينا من الأعلى أيضا، رأيت مجموعة كلاب تهاجم الحاوية، كنت أتوقع أن تخترق رأسي أو رأس أخي رصاصة طائشة، جنون الرمي العشوائي لا يتوقف للحظة، مهرجان القتل مستمر، الكل يرمي والكل مختبئ في مكان مجهول، ليس ثمة وضوح فيما يجري، كأن المدينة تقاتل نفسها، مَنْ يرمي على مَنْ؟ لا ندري، تصاعد دويّ من نوع آخر، وانطلق صوت حاد من مكبرات، يحذّر أو يتوعّد أو ينذِر، لم يكن واضحًا، الكلمات متقطعة، طلب مني أخي يوسف أن نتخلص من المسدسات، قال بألم وخوف:

ـ إنها دليل كافٍ لقتلنا. وأضاف:

ـ الأفضل أن نتّجه نحو أقرب طريق يقودنا إلى حيّنا السكني.

المسافة من مركز المدينة إلى الحي الذي نسكنه تستغرق أكثر من ساعة سيرًا على الأقدام، قلت لأخي:

ـ لا نلقي السلاح لأننا لمّ نزل في بداية الرحلة وربما نحتاج له في الأيام المقبلة.

خمنتُ أنه لم يفهم ما أقصده، لكنه وافقني، فطلبتُ منه أن يخفي السلاح بطريقة أكثر تمويهاً، انتهى هذا الزقاق الذي أدخلَنا في قلب المدينة، تصاعد الرمي، رأيت قمامة أخرى تبعث بكنيف مميت نحو الفضاء، فكرتُ بالتخلص من المسدسين، رأيت أشخاصًا يتراكضون في اتجاهات متقاطعة، لا اعرف لماذا يركضون أو إلى أين يتوجهون، ثمة أسلحة متوافرة عند أشخاص يجوبون مركز المدينة وشوارعها الرئيسة، رأيت أناسًا لا يحملون سلاحًا، دُهشت عندما رأيت امرأة تتلفع بعباءة سوداء، وقد تكوّرت على نفسها تحت بناية آيلة للسقوط، عندما رأيت وجهها وشعر رأسها غير المستور، عرفتُها، إنها متسولة عريقة ومعروفة في المدينة، كان الوقت قبل الظهيرة، فكرتُ أن ننزوي في مكان خفيّ بانتظار هدوء الأوضاع عسى أن يقلَّ رمي الرصاص العشوائي، ربما تؤول الأوضاع إلى الهدوء أو الاستقرار، لكن قانون الحروب والاضطراب كما تعلّمنا في السابق يقول لك، عليك أن تنقذ نفسك بأقصى سرعة ممكنة، وتخرج من معمعة الخطر إلى أقرب نقطة آمنة، لم يوافقني أخي يوسف على فكرة الانزواء ولم اقتنع بها أيضا، فقلت له:

ـ هيا لنواصل المسير.

خرجنا من الشارع الفرعي لندخل في ساحة مفتوحة، كان يقطعها شخص واحد على عجل، إذا استطعنا عبور الساحة سوف نستدير يسارا ونتوجّه بشكل مستقيم في زقاق يقودنا نحو شارع طويل إلى منطقتنا السكنية، وإذا تخلصنا من مركز المدينة قد نجد سيارة أجرة تقلّنا إلى البيت، كل شيء جائز، أصبحنا في وسط الساحة، وكأننا في ساحة حرب مكشوفة، قلت ليوسف:

ـ اخفِ نفسك ورائي تماما.

في الجيش علمونا أن نسير بشكل طولي جندي يتبع الآخر ولا يسير جنبه، أسرعتُ في السير كأنني أركض، الأزيز يتعاظم، أصوات المكبرات تتعالى أيضا، لا أعرف لماذا لم أمسك بيد يوسف كي اسحبه معي بقوة، وجدتُ جسدي خفيفًا سريعًا طائرًا، انتهت مرحلة الخطر، أصبحتُ قاب قوسين من رأس الزقاق الجديد، الأزقة الضيقة تحميك من الرصاص ومن العيون الخطرة، خطوات وأصل رأس الزقاق وأخرج من الساحة المفتوحة، ها أنا أقطع الساحة كلها بلمح البصر، بيد أنّ شعورًا قاسيًا دهمني، لا أثر لأخي خلفي، استدرت مصدومًا، فعلا لا وجود ليوسف، يا إلهي، تلفتُّ، صرختُ، ثم رأيت في منتصف الساحة المكشوفة جسدًا يتلوّى ويلوّح بذراعه مستغيثًا، إنه يوسف حتما، هرعتُ إليه، الرصاص يزداد ويتعاظم، الأزيز يتضخّم، رأيت بركة دم احمر قان تحيط به، تهالكتُ فوقه، كان دامع العينين، لم استطع إسعافه في هذا المكان المكشوف، حملته على ظهري كما كنت أفعل ذلك في طفولتنا، كنت أحمله بطريقة (حمّال باشي)، يركب على ظهري ويفرد

رجليْه إلى الجانبين ويلّف ذراعيه حول رقبتي، وأنطلق به راكضا في ساحة اللعب، كان خفيف الوزن آنذاك، فعلتُ الشيء نفسه الآن، لكنه بات أكثر ثقلًا، استقر فوق ظهري وأفرد ساقيه إلى الجانب مثل جناحين، طرتُ به قاطعا الساحة نحو رأس الزقاق، هناك أجلسته فوق الأرض وأسندتُ ظهره إلى الجدار، أخذتُ مسدسه وأخفيته في خاصرتي الأخرى، وأقفلتُ أزرار سترتي بإحكام، شعرتُ أن المسدسين برزا إلى الخارج أكثر، نسيتهما وسحبت سروال يوسف من ساقيْه، كانت الرصاصة قد خرقتْ سطح فخذه الأيسر، فبدا الجرح طويلا من دون عمق كبير وشرع ينزف دما مصحوبا بقطع سوداء متخثرة، سرعان ما تحوّل وجهه إلى لوحة صفراء، خطر في بالي أن الرصاصة قطعتْ أحد الشرايين أو الأوردة، هذا يعني أن النزف لن يتوقف، قال يوسف بصعوبة وهو يرتجف:

ـ دمي سوف ينفد من جسدي، أوقف نزيفي يا أخي.

أغلقتُ الجرح الطولي بكفّي، وأخرجت منديلًا من جيبي، وضعته على كامل الجرح وضغطته بقوة، صرخ متألما، لبثتُ مدة ضاغطا على الجرح، ثم ربطتُه بقماش السروال حول فخذه وشددته بكل ما أملك من قوة، كنت أتلفّت في الجهات الأربع عسى أن تلوح لي سيارة إسعاف أو محل صحي، حملتُ أخي مجددًا، وأسرعتُ به في الزقاق، تجاوزنا الظهيرة بأكثر من ساعة، أعرف أنه بحاجة إلى الماء، ولكن من أين أحصل له على ذلك، كانت قطرات الدماء تتسرب من الرباط فرأيت خيط دم خفيف يخطّ نفسه خلفي، جازفتُ وطرقت أحد الأبواب، كررتُ

ذلك بقوة، بعد أن أنزلت أخي من ظهري، لم يجبْ أحد، حملته ثانية وركضت في عمق الزقاق، لا يزال الرصاص يملأ المدينة بالصليل، رأيت حنفية ماء عند أحد الأبواب، هرعت إليها، فتحتها فخرج منها صفير هواء يشبه صوت قذيفة في طريقها إلى الهدف، الماء مقطوع عن المدينة، ركضتُ بيوسف مجددا، شعرت أنه صار ثقيلا، لم يبق في هذا الزقاق سوى بيت أخير ونخرج في ساحة مفتوحة أيضا، طرقتُ الباب بيأس تام، لحظات وفتحه شاب لم يتجاوز سقف العشرين، لاحظ الدم في يديّ وعلى ملابسي، ونظر نحو يوسف ثم أغلق الباب بسرعة، تكلمتُ معه من وراء الباب، قلت له:

ـ نحن لا نريد أن ندخل البيت، فقط نحتاج إلى قليل من الماء، هذا أخي فقد الكثير من دمه، دع إنسانيتك هي التي تحكم بذلك.

بعد دقائق لذتُ بالصمت واليأس معا، بقيت في مكاني ويوسف إلى جانبي يجتاحه اليأس وظهرَ الجفاف في شفتيه وجسمه كله، كانت قطرات الدم الصغيرة لا تزال تنزّ ببطء، قلت له:

ـ إياك أن تيأس.

قررت أن أعبرَ به الساحة القادمة بأقصى ما أستطيع، حملته على ظهري بالطريقة نفسها، أخي يزداد ثقلا، لم يبق للطفولة مكانة في هذا المهرجان الدموي، ثم أجبرتُ ذاكرتي ورحت أتخيله طفلا حتى أخفف من ثقله، وقبل أن أخطو خطوتي الأولى في الساحة فُتحَ الباب من جديد، وظهر رجل كبير السن، في يده (طاس)

ماء نظيفة، أنزلتُ يوسف، قدَّم الرجل (الطاس) لي، وضعها بين يديّ، لم ينبس بكلمة، لمحتُ دائرة سمراء في جبينه أثر السجود، كان يلّف رأسه بكوفية بيضاء، وشرعت عيناه تنظران إلى انتفاخ خاصرتيّ عند الجانبين، عرف أنني أحمل سلاحاً، تلقّف أخي الماء، طلبتُ منه أن لا يشرب الماء دفعة واحدة، هذا يشكل خطرا على حياته، مسكتُ (الطاس) بكفي وأعطيته جرعات قليلة، ثم شربتُ ما تبقى من الماء وأعدت (الطاس) للرجل الكبير وشكرته، فقال بتردد:

ـ هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟

فكرت أنني لا أستطيع إجابته، شعرت انه حذِر ومتردد، الناس في هذه المدينة يخشون من يرتدي مثل ملابسي ويحمل في خاصرته سلاحا يبرز من تحت القماش، إنهم يحسبون ذلك من رجال الأمن، كرر سؤاله لي، فقلت:

ـ أخي أصيب بطلق ناري عشوائي، ونزف الكثير، أحتاج إلى قطعة قماش أشدُّ بها جرح أخي.

خلع الرجل كوفيته البيضاء من فوق رأسه فجأة وقال لاهثا:

ـ هل تنفعك؟

فاجئني بموقفه هذا، أخذتها منه ونبستُ بنبرة خفيضة:

ـ بارك الله فيك يا حاج.

طلب مني الرجل أن أنتظر قليلا، دخل البيت، بعد لحظات خرج ابنه الشاب راكضا، قطع الساحة إلى مكان ما، خرج الرجل مرة أخرى من بيته وقال:

ـ أرسلتُ ابني إلى شخص قريب لي، يمكنه مساعدتكم، سيصل بعد قليل إلى هنا.

كنت في حالة من الشك، الثقة لم يعد لها وجودا بين الناس، ربما اتصلَ هذا الرجل بمن يُلحق الأذى بنا، قد نكون في مواجهة الموت مجدّدا، سطعت في بالي هويتي الممنوعة والمسدس، هكذا تصوّرت الأمر ولم أستبعد أن يحدث شيء من هذا القبيل، الناس مهووسة بالثأر من بعضها، الرجل الكبير ركّزَ كثيرا في نظراته على بروز السلاح من خلف سترتي، قلت له من فوري:

ـ شكرا أيها الحاج، لا نحتاج أيَّ شيء.

وحملتُ أخي على ظهري، وركضت به قاطعا الساحة المفتوحة بقلق كبير، لم أتوقّف هذه المرة كي أسحب أنفاسي، عبرتُ الساحة الإسفلتية بسهولةٍ كبيرة ويُسرٍ غريب، وعندما قطعتُها كلها أنزلت يوسف كي يرتاح وأرتاح قليلا، في تلك اللحظات القلقة رأيت سيارة أجرة (تكسي) تمرق قريبا منّا، واصلتْ سيرها نحو بيت الرجل الكبير، وتوقفت عند بابه، كنت قد دققت بوجه السائق، لم يكن وجها شرّيرًا، بل كان رجلًا وقورًا وكبيرًا في السن أيضا وإلى جانبه الشاب نفسه بملامحه البريئة، تركت أخي في مكانه، وركضتُ بأقصى سرعتي إلى بيت الرجل الكبير، وصلتُ قرب سيارة الأجرة المطلية باللونين البرتقالي والأبيض، كنتُ ألهث بشدة وتقطّعتْ أنفاسي، عرف الرجل أنني عدت كي أحصل على ضالتي، وتفهَّم أنني بحاجة إلى سيارة الأجرة هذه، تبسّم قليلا، ثم وجّه كلامه لي:

ـ هل ظننت السوء بي؟

أحرجني الرجل، لكنني قلت له:

ـ في هذا الخراب تبخَّرت الثقة بين الناس يا حاج.....

أزيز الذباب

مجاميع غاضبة تستدير حول بناية أمنية كبيرة، بقايا نيران وذيول دخان تتصاعد منها، لم يبق في داخلها أي شيء، جميع الأثاث تم حرقه أو تدميره، بضعة جثث ملقاة داخل وخارج البناية، لا أحد يدنو من هذه الجثث أو يطالب بها خشية أن يلقى المصير نفسه، الناس المتجمهرون هنا يلقون عليها نظرة خاطفة تخلو من المشاعر، وأحيانا تكون نظرتهم عميقة متأملة، يواصلون سيرهم أو وقوفهم، البعض يدقّق النظر، وآخرون يغضّون أبصارهم، في الليل يأتي ذووهم خلسة ويحملون هذه الجثث بترقب وخوف، بعض الجثث بقيت مرمية أيامًا متوالية في مكانها، لا أحد يدنو منها خشية القتل، مررنا أنا وأخي بالقرب من إحدى الجثث، رأيتُ وجه القتيل مهشماً، الذباب يتكور على فمه المفتوح وأسنانه السود وعينيه، رأيتُ غطاء عتيقًا مرميًا بالقرب من الجُثّة، غطّيتُ الوجه المهشّم لإبعاد الذباب عنه، اقترب مني رجل، لاحظتُ الغضب المكبوت في عينيه، تساءل بحقد:

ـ هل هو أحد أرحامك؟

قلتُ له:

- تعلّمنا أن نبدأ الكلام بالسلام!

ـ وهل مثلك يعطيني درسا في كيفية مخاطبة الناس؟

ـ لا أعطي دروساً لأحد، لكنك لم تلقِ التحية عليّ.

ـ هل هو قريبك؟

ـ كلا ليس من أرحامي.

ـ لماذا غطيت وجهه إذاً؟ وأضاف:

ـ هؤلاء لا تكسب فيهم حسنة.

قلت له:

ـ فعلتُ ذلك مراعاة لحرمة الإنسان لا أكثر.

تقدّم الرجل بعصبية، وسحب الغطاء بقوة عن الجُثَّة، فانكشف الوجه مجدَّدا، فيما عادت مجاميع الذباب تهاجم الوجه بأزيز يقترب مما يُحْدثه الرصاص، رأيت مجموعة رجال تخطو نحو الجُثَّة، في عيونهم تشتعل نار الغضب، دنا مني أخي وقال:

ـ لنبتعد من هنا.

واصلنا مسيرنا، لاحظتُ امرأة تخرج من البناية تحمل على رأسها جهاز تلفاز، تحث الخطى وتشتم الجميع بصوت عالٍ، لا أحد يعترض سبيلها، شيخ يحمل كراسي مصنوعة من البلاستك، بعضها مهشّم ولا يصلح للجلوس، يأخذها الشيخ ويلهث نحو وجْهةٍ ما، وأطفال يتعاونون على حمل لوحة أشبه بسبورة الدراسة، مطلية باللون الأسود، آخرون يتعاونون على حمل مقاعد ثقيلة وقديمة، لم أرَ شيئًا ذا قيمة يخرج من هذه البناية، في الجانب الآخر من الشارع العام توجد مدرسة مقابل هذه البناية، تم التجاوز على بعض محتوياتها فيما كان الحارس يدافع

بضراوة عن أثاث المدرسة، امرأة تجاوزت الأربعين خرجت من داخل المدرسة تحمل على رأسها مقعدًا من الخشب، يعود للطلاب، شعرتُ بالأسف لهذا المنظر، فهذه مقاعد دراسية يجلس عليها أطفالنا كي ينهلوا من منابع العِلْم، قلتُ للمرأة:

ـ هذه مقاعد صفوف دراسية يتعلم فيها أطفالنا، علينا أن نحرسها، لا أن نسرقها.

نظرتْ المرأة إليّ باشمئزاز، ثم واصلت طريقها كأنها لم تسمعني، تابعتُها وهي تستدير إلى اليمين، قررتُ أن أطرق الباب وأتحدث مع زوجها وأقنعه بضرورة إعادة المقعد الدراسي إلى المدرسة، توقّفتْ المرأة عند سياج بيت قديم آيل للزوال لا يصلح أكثر من زريبة، في زاوية قريبة من السياج يوجد (تنور من الطين) لشواء الخبز، رأيت المرأة تهشم مقعد الدراسة بفأس قديم، وتلقي بقطع الخشب في فوهة التنور، وأشعلت النار فيه، فكرتُ أيهما أهمّ العِلْمُ أم الخبز؟ وابتعدتُ عن المرأة من دون أن أحدّث زوجها بشيء.

واصلنا السير أنا وأخي الذي يصغرني بثلاث سنوات، كنتُ قد عرفتُ أن البيت يخلو من المواد الغذائية، أمي طالبتني شخصًيا بجلب الغذاء، طحين ورز وزيت طعام، تواردت لنا أخبار عن اقتحام الناس لمخازن الغذاء، و(سايلو) القمح، حثثْنا السير نحو أحد المحال المعروفة، أخي طلب مني التريّث في الشراء والذهاب إلى المخازن العامرة بالمؤن كي نستطلع الأمر، على جانبيّ الطريق يعرض عدد من الباعة أكياسا من الرز والطحين والسكّر وعلب السمن ومعجون الطماطم والحليب المجفف من ماركة (نيدو) الفرنسي الشهير وأغذية أخرى، الأسعار لم

تكن مرتفعة، لكن أماكن عرض هذه الأغذية وطريقة العرض جعلتنا نتريث في الشراء، عرفنا بعد وقت قصير أن جميع هذه المعروضات تم الاستيلاء عليها وتسريبها من مخازن الأغذية الرسمية، أخي قال:

ـ لنذهب ونحصل على بعض الغذاء للأكل وليس للبيع.

قلت له:

ـ كيف نأكل طعاما بلا مقابل؟

ردّ أخي:

ـ هذا طعام الشعب وليس ملْكا لأحد.

ـ بل هذه سرقة لا يصح السكوت عنها.

ـ ولماذا لم نعترض على الذين سرقوا الوطن؟

ـ لا شيء يبرر التجاوز على مخازن الغذاء بهذه الطريقة.

واصلنا السير نحو مخازن الغذاء، كانت تمرُّ من جانبنا سيارات حمل صغيرة معبأة بأنواع الأغذية، وثمة عربات دفع يدوية محملة بأكياس من الطحين والرز يدفعها شباب نحو الأحياء السكنية البعيدة، الشارع في حالة هرج ومرج، لا شيء يخضع للانضباط القانوني أو العرفي أو حتى الذاتي، لم أرَ مثل هذا المشهد من قبل، أشخاص يحملون أكياسًا على ظهورهم ويغذون السير فرادى إلى بيوتهم وجماعات تفعل الشيء نفسه، وصلنا إلى باحة واسعة تتقدم المخازن، كانت جمهرة الناس فيها هائلة، وثمة ضجيج مفزع ومعارك جانبية بين أفراد وجماعات تتعارك فيما بينها

على هذه الحصة أو تلك، ثمة وجوه غابت عنها الرحمة وأخرى فارقها التوازن، مجاميع تغزو هذه المخازن ومن يعترضهم لا يتورعون عن ضربه أو إصابته بعاهة مستديمة، يدخلون بقوة ويحجزون حصصًا غذائية كبيرة تصل إلى مئات الأكياس والعلب المعدنية والقناني مختلفة الأحجام والمواد، ويشرعون بإخراجها وتحميلها في سيارات جاهزة للحركة، وعندما تختلف المجاميع على الحصص، يحدث بينها ذلك العراك الدامي، ليطفو مهرجان العراك على الأحداث، بدا الأمر كأنه حالة صراع في غابة، أسندتُ ظهري إلى عمود كهرباء قريب من بوابات المخازن الغذائية ورحت أتأمل هذا المشهد الغريب، قلت لأخي:

ـ هل كنت تتوقع حدوث شيء من هذا الذي تراه؟

ـ نعم هذا ليس بالأمر الغريب، بل هو السلوك المتوقّع من أناس يحاصرهم الجوع.

ـ هل الجوع يبرر هذه التجاوزات؟

ـ بالنتيجة هؤلاء لا يسرقون شيئا، إنما يستعيدون بعضا من حقوقهم.

ـ حقوقهم؟؟ وهل تسمّي هذه حقوق؟ أشخاص يسرقون عشرات ومئات الأكياس والعلب ويتاجرون بها، وآخرون يحضَوْن بكمية أقل، وبعضهم يخرج بكيس واحد، ومنهم من لا يحصل على شيء، تُرى أين العدالة في هذا؟

ـ كلّ يأخذ ما يتمكن عليه، يمكنك أن تأخذ ما تشاء من الغذاء، هذه حقوق وأموال الشعب.

ـ أموال الشعب يجب توزيعها بصورة عادلة، وليس وفق منطق القوة والضعف.

ـ أنت تعرف لماذا ساد بيننا منطق القوة، ولماذا غاب منطق العدل

ثم صمتَ قليلا وقال:

ـ لا تنتظر العدل من شعب مقهور.

ـ أين يكمن الخلل، لماذا لا نعيد القيم الصحيحة، لماذا لا نُحْييها.

ـ نحتاج إلى عشرات السنين حتى نستعيد ما فقدناه من قيم.

وعندما شعر أنني تراجعت أمام رأيه، طلب مني الدخول إلى المخازن، فربما نحصل على شيء مما نحتاجه في البيت من غذاء، لم أقتنع بذلك، كنت مصممًا على عدم التأثر بسلوك القطيع، معي كمية من النقود ربما نستطيع أن نعبر بها هذه الأزمة، عرف أخي أنني لا أوافقه الرأي، فطلب مني أن أسمح له بالدخول وحده كي يجلب ما يتمكن عليه من مواد غذائية، لكنني رفضت ذلك أيضا وذكّرته بأنني أخوه الأكبر ولن أسمح بدخول بيتي أي شيء يأتي بهذه الطريقة غير العادلة، رضخ على مضض، كانت الناس تدخل بالعشرات وتخرج محملة بما تحصل عليه، استطعتُ أن أميّز من يحتاج الطعام إلى بيته وعائلته، ومن يشترك مع زمرة للمتاجرة وبيع هذه المواد على الدكاكين الصغيرة والناس، وربما يلجأ بعضهم إلى خزنها في بيوتهم واحتكارها، وقد تُعرَض فيما بعد بأسعار خيالية.

عدنا أدراجنا بخفيّ حنين، ولكن بلا أسف أو خيبة على الأقل بالنسبة لي، فقد شعرت أننا قمنا بعمل صحيح، على طول الطريق، وعلى الجانبين، كان ما نحتاجه معروضًا للبيع، طلب مني أخي أن نشتري ما نريده، فالأسعار هنا منخفضة،

رفضتُ ذلك، وأخبرته عن قناعة، إذا اشترينا من هؤلاء فإننا نشجعهم على الخطأ، وقررت الشراء من المحال والدكاكين التي نعرف أصحابها جيدًا، وصلنا أحد هذه الدكاكين، فرأيت أن الأكياس المعروضة لديه لا تختلف عن تلك المسروقة، إنها تحمل الأوصاف والمنشأ والكتابة نفسها، كان أخي ينظر إليّ بتشفٍّ كأنه يشمت بي، سألت صاحب الدكان عن مصدر هذه الأكياس التي يعرضها، فأجاب هناك سيارات حمل صغيرة تدور على الدكاكين وتبيعها لنا، وعندما سألته:

ـ لماذا لا تجلب الغذاء من مصدره الموثوق؟

قال:

ـ جميع محال الجملة داخل المدينة مغلقة أو مدمَّرة، لم يبقَ شيء على حاله.

ـ ألا تعتقد أنك تتجاوز على العرف والقانون عندما تشتري هذه المواد من هؤلاء الباعة الطارئين وأنت تعرف كيف يحصلون عليها، إنها سرقة في وضح النهار؟

قال صاحب الدكان:

ـ إذا امتنعت عن الشراء من هؤلاء، هذا يعني أنني سأغلق دكاني، فكيف أعيش أنا وعائلتي؟

ـ ألا تعتقد أنك تشجع هؤلاء وأمثالهم على ارتكاب الحرام؟

ـ لا طريق بديل أمامي!.

انضمّ إلينا رجل آخر، كان يروم شراء شيء ما، يبدو أنه سمع الحوار الذي دار بيننا، أيّدني فيما ذهبت إليه، ورفض منطق إدامة الرزق عن طريق السرقة، في هذه

اللحظة توقّفت سيارة حمل بالقرب من الدكان، هو ذا أحد السوّاق المتجاوزين على المخازن، وكان معه في السيارة ثلاثة شبان أشدّاء يرتقون أكياس الرز في حوض السيارة، سأل السائق صاحب الدكان عن الكمية التي يحتاجها، فأخبره صاحب الدكان أنه لا يمتلك النقود حاليًا، سمعت صاحب سيارة الحمل يقول له، لا يهم خذ ما تحتاجه من مواد وتبقى بذمتك حتى تسددها، الرجل الذي أيّدني في موقفي لم يستطع الصمت عندما وصل الأمر إلى الذمة، فقال للسائق:

ـ هل تسمح لي بسؤال؟

قال السائق:

ـ تفضل.

ـ ماذا تقصد بجملة (تبقى بذمتك)؟

ـ أقصد يكون صاحب الدكان مسؤولًا عنها أمامي وأمام الله حتى يسدد قيمتها.

فسأله الرجل بصورة مباشرة:

ـ وهل سدّدتَ أنتَ قيمتها؟ هل برّأتَ ذمتك؟؟

ـ ماذا تقصد بكلامك هذا؟

ـ كلامي واضح لا يحتاج لشرح.

ـ أنا جلبت هذه الأكياس من المخازن.

ـ وهل دفعت قيمتها، هل ذمتك بريئة أمام الله والشعب؟

ـ الشعب؟؟

ـ نعم الشعب، هذا غذاء الشعب وأنت تسرقه وتبيعه إلى الدكاكين من دون وجه حق.

في هذه اللحظة قفز الشبان الثلاثة من حوض السيارة إلى الأرض، توجهوا نحو الرجل مباشرة، أحدهم لكمه بقوة في فكّه، تطوّح جسد الرجل وسقط على الأرض، وراحت أقدام الشباب الثلاثة تركل ظهره وأكتافه ورأسه بعنف، هرعنا أنا وأخي لحمايته وشكّلنا جدارا للذود عنه، انسحب الشبان الثلاثة والسائق وكانت ألفاظ السباب تتناثر من أفواههم (قذر، حرامي، يريد أن يعلّمنا الرزق الحلال، وهو وحكومته أول من سرقوا الشعب)، لم يشترِ صاحب الدكان شيئًا منهم، الرجل المعتدى عليه فقد الوعي كما أظن، وبعد حين، أيقظتْهُ رشّة ماء بارد، كان أخي يمسح جبين الرجل بخرقة بيضاء رطبة، وبدأ صاحب الدكان يرش على وجهه رذاذًا باردًا، فتح الرجل عينيه، رأى مجموعة من الناس تجمهروا بالقرب منه، استعاد وعيه، أصاب وجنتيه تورّمٌ واحمرار، فكّه أيضا بدا متورما، آلام تفور في رأسه وأكتافه وظهره، كان يتلمس أعضاءه المتورمة بصمت، ورأيت دمعة تسقط من عينه.

بالتدريج استعاد الرجل كامل وعيه، لم يتطرق لما حدث، ربما أقنع نفسه بأن هذا الذي حدث له ما هو إلا ضريبة لا مفرّ من دفعها، وعندما استقرّ وضعه، قررنا أنا وأخي أن نواصل طريقنا إلى البيت، حينئذ سمعتُ صاحب الدكان يعتذر من الرجل عمّا حدث له، وقبَّل رأسه، ثم قال:

ـ هل ترغب بمقاضاة السائق والشبان الثلاثة، أنت تستحق فصلاً عشائرياً منهم؟
فأجابه الرجل المعتدى عليه جازما:
ـ إنسَ الأمر!!....
خمّنتُ أن ما يحدث لن يمر من دون تداعيات، نحن نسير في اتجاه خاطئ، بعضهم يقول علناً، الفقراء يقتصّون الآن من الأغنياء، وهذا القصاص مؤيَّد بنص قرآني، (لكم في القصاص حياة)، هكذا يفلسفون الأمور كي تأتي في صالحهم، يقف معهم بعض الذين ركبوا الموجه، ومنهم رجال دين غير معروفين يدعمون الثأر والفتن بالخفاء، وفي العلن يرفضون ذلك، نفاق في وضح النهار، هناك من يقول أن النسبة الأكبر من الفقراء لم يرتكبوا مثل هذه الأخطاء، فالتجاوز على المال العام تقف خلفه زمر مارقة، لا تعترف بالقيم أو الدين أو القانون، وقد أشاع هؤلاء أفعالا وقِيَما جديدة بين الناس وجعلوا من بعضها مقبولًا، وبالتدريج بدأت بعض تلك القيم تنتشر ويتم تكريسها، منها تدمير الممتلكات العامة بلا تمييز، والتجاوز على بيوت الأغنياء وممتلكاتهم، وساد منطق القوة على كل شيء، بعض الناس يقولون هؤلاء الأغنياء هم من مؤيدي السلطة، إنهم ناصَروها، وشاركوا في الأخطاء التي ارتكبتها، ولكن هناك من يرفض هذا المنطق ويقول، ثمة منهم متضررون أيضا، واصلنا طريقنا إلى البيت، سألني أخي:
ـ هل لديك رؤية لمعالجة ما يحدث؟
قلت له:

ـ إذا استمرت الأمور كما تجري الآن، سوف ينتعش الظلم.

ـ وأين الظلم عندما يحاول الجائعون سد رمقهم؟

ـ الجوع لا يبرر السرقة، ولا يمكن معالجة الخطأ بالخطأ.

مررنا معا أنا وأخي على صاحب محل قديم كنت أتسوّق منه في السابق، طلبت منه ما أحتاجه للبيت، واشترطتُ ألا تكون المواد مسرّبة حديثًا من مخازن الغذاء، فعرفت منه، أن العديد ممن لا يعرفهم سابقًا عرضوا عليه منتجات غذائية مختلفة بأسعار مغرية، لكنه رفضها جميعًا، ولا يزال يعمل بالمخزون الذي يحتفظ به وقد بقي منه القليل، وعندما سألته فيما لو باع كل ما لديه للناس، هل سيغلق دكانه، فقال:

ـ الرزاق حي.

رجل يعدّ نفسه للرحيل

رأيتُ أبا أمجد ينتبذ مكانًا قصيًا، جالسًا القرفصاء، رأسه يتدلى بين ركبتيه، ناظرًا في وجه الأرض، كتفاه يهتّزان بحركة آلية منتظمة، مع نحيب مسموع وموجع، لأول مرة أراه يحبّذ الوحدة على الاجتماع، هذا الرجل يكبرني بعدة سنوات، الشيب يملأ رأسه، قدّم كل ما يتمكن أن يقدمه في سنوات عمره للإنسان والحياة معاً، ولكن بالنتيجة ها هو يعيش في أواخر عمره مشرّدًا في الصحاري والرمال، يسكن زريبة لا تصلح لسكن الحيوانات، ولا تكتفي الأقدار بذلك، كأن هذه العقوبات لا تفيه حقه وجزاءه، فتذهب إلى أبعد من ذلك، لتأخذ منه ولده الوحيد أمجد، وهو شاب في مقتبل العمر، لم يمسّ أحداً بسوء، إلا في حالة واحدة، عندما يركبه العناد، وهذا لا يحدث إلا في حالة شعوره بالغبن، ما عدا ذلك فهو مسالم لأنه عاش في بيت وأسرة مسالمة، كان أبوه يردد هذه الجملة دائما: من سوء حظي أنني قضيت ثلثيّ عمري في الحروب، ومن حسن حظي أنني لم أُطلقْ رصاصة واحدة على كائن حي.

من دون سابق إنذار، دهمَت أمجد حالة شديدة من العناد، فأصرّ على الذهاب إلى المزرعة البعيدة، كان أمجد قد طلب القيام بذلك قبل أيام فمنعه أبوه، كان يرغب بجلب بعض الماء والخضرة كما يقول، ربما من باب المشاركة أو تغيير الوضع اليومي الرتيب، لكن الوقت لم يكن مناسباً لهذه الخطوة، كان النهار في أواخره،

الطريق إلى المزرعة طويل، بقيَ أمجد مصرّاً على الذهاب في نوبة عناد جديدة كتلك التي كان يخبرني عنها أبوه، أكد أمجد أنه سوف يزور صديقه الشاب البدوي ويعود ومعه بعض الخضرة والماء، اعترض عليه الجميع، ورفض أبوه ذهابه بشكل قاطع، لكنه ركب رأسه كما يُقال، كثيرا ما شكا أبوه من عناده، وحتى تخفّ الآراء المعارِضة له، أكد أمجد أنه سيكون بصحبة شباب آخرين، حاول آخرون منعه من هذه الخطوة المباغتة الخطيرة وحاول أبوه أن يثنيه بالقوة، لكن الأمر لم يعد ممكنًا، في دقائق اختفى أمجد في رحاب الصحراء، كان الوقتُ عصرا، نادى خلفهُ أبوه:

ـ يوجد لدينا ما يكفينا من الغذاء والماء، لا تقتل نفسك وتقتلني.

ثم ركض أبوه خلفه صارخاً متوعداً من دون جدوى، غاب أمجد بين كثبان الرمال، بعد حين عاد الأب وحده، خافضا رأسه نحو الأرض، يهزّ يده في الهواء آسفا مقهورا، سأله أحدهم:

- هل حقّاً رافق ابنك بعض أصدقائه؟

ـ لم أرَ أحدا سوى الصحراء الواسعة، كأنّ الأرض انشقّتْ وبلعته.

ـ لا بأس سيعود سالما، لا مخاطر في هذه المناطق المأهولة.

خيّم الغروب على المكان، بدأت النساء في إعداد الطعام، شبّت النار باتجاه الأعالي، ألسنتها تُلهب الوجوه، فوقها قِدْر لا نعرف ماذا يحتوي من طعام، استدرنا جالسين حول النار، إلا أبو أمجد بقيَ داخل البيت الصغير نائمًا، ذهب إليه أحدهم وعاد إلينا ليخبرنا أنه في حالة صمت أو نوم عميق، في مكان قريب مجاور للنار،

بدأت طفلة تعجن الطحين، أشعل أحدهم نارًا أخرى، وضع فوقها قطعة معدن دائرية استعداداً لشواء الخبز، مرّ الوقت سريعًا، وتحلّقنا في دائرة تتوسطنا مائدة عامرة بما لذّ وطاب، خرج أبو أمجد ترافقه موجة سعال شديدة، فسحنا له مكانا كي يجلس بيننا ويتناول العشاء، لكنه رفض ذلك وقال:

ـ كيف أتعشّى في غياب فلذة كبدي؟

كان محقّاً في قوله، فطوال وجودهما لم يفترقا عن بعضهما، كأنهما مشدودان بحبل قوي يوحّد بينهما، كان نومهما معا وجلوسهما كذلك، يقضيان أوقاتهما معا، قلما نرى أحدهما بعيدا عن الآخر، كان الحديث بينهما يجري في نبرة خفيضة، ثم فجأة يكركران كالأطفال حتى تدمع عيونهما، حياة أبي أمجد كانت ممتلئة بالكائن الوحيد الذي يستطيع أن يجعل منه إنسانا يحب الحياة، والآن أبو أمجد يعيش هذه اللحظات وحيدا، بانتظار أن يعود له نصفه أو كلّه الذي غادره عنوة، تجاوزنا منتصف الليل، الظلام يدهم الصحراء، أمجد لم يعد إلينا، القلق يطوّق الجميع، أبوه يبكي بصمت، وأحيانا يجهش ثم تعلو نبرة البكاء، قال أحدهم:

ـ لنذهب إلى المزرعة البعيدة نبحث عنه.

استدار إليه أبو أمجد كأنه سمع ما ينقذ ابنه ويعيده إليه، قالت إحدى النساء:

ـ ربما يبيت عند صديقه الشاب البدوي.

قال آخر:

ـ هذا احتمال وارد.

فكّرتُ أنا أن الذهاب مشيًا على الأقدام إلى المزرعة البعيدة ليلا ينطوي على مغامرة، ورد في بالي العثور على سائق سيارة أجرة قد يساعدنا في الوصول إلى أمجد، ذهبنا أنا وأبوه ورجل ثالث إلى مزرعة قريبة بحثا عن سيارة أجرة، كانت كتلة الظلام كثيفة على نحو غريب، جعلت من مدى الرؤية شبه معدوم، معنا مصباح صغير، وصلنا إلى المزرعة الصغيرة، لم يكن الطريق إليها بعيدا بل أقرب مما توقعنا، لاحت لنا سيارة أجرة قديمة، عشنا لحظات أمل مفاجئة، تقرّبنا أكثر، رأينا السيارة جاثمة على الأرض بلا إطارات، ماذا نفعل الآن، الساعة قاربت الثانية بعد منتصف الليل، طرقتُ الباب على خجل، أكثر من مرة، خرج أحدهم ملثّما، شرحنا له حاجتنا لسيارة، بانَ في ملامحه الخجل، وقال:

- تعرّضت سيارتي للسرقة، أربعة إطارات في حالة جيدة سرقها أحدهم، لأول مرة يحدث هذا في منطقة المزارع.

عدنا أدراجنا، تباطأ أبو أمجد في خطوه، أصيب بإحباط شديد، والحقيقة كلّنا شعرنا بالألم، وصلنا إلى بيتنا الصغير الواطئ، سمعنا صوت امرأة وهي تسأل بلهفة عمّا فعلناه، لم يجبها أحد، عرفتْ من وجوهنا أننا لم نقم بشيء يُذكَر، لم نَنَمْ ما تبقى من ساعات قليلة لهذه الليلة، الفجر سيكون على الأبواب، تهيّأنا للذهاب إلى المزرعة البعيدة ما أن تلوح تباشير الفجر، سوف نسأل عن الشاب البدوي فهو صديق أمجد وقد يدلّنا عليه، مع الضوء الأول لإطلالة الفجر، توجّهنا إلى المزرعة، أنا وأبو أمجد وشخصان آخران، كان الأب منهكًا لكبر سنّهِ، أخبرناه بأننا سنذهب

ونعيد ابنه معنا، رفض ذلك، كان يعرف أن الطريق رملي متعِب وبعيد، لكنه كان يكابر، انطلقنا في أعماق الصحراء حيث المزرعة البعيدة التي قدمّت لنا ما نحتاجه من غذاء وماء قبل أيام مضتْ، لم يكن عطاؤها مجانا، فقد تأخذ منّا ثمنا غاليا، لا شيء يُمنَح مجانا لأحد في زمننا هذا، في الصباح بدأ لهاث أبي أمجد يعلو وجبينه يتفصّد عرقا، هبط رأسه نحو الأرض وانحنى ظهره، لم تزل ثمة مسافة بعيدة كي نصل المزرعة المقصودة، أمسك أحد الرجال بذراع أبي أمجد وأسنده إلى كتفه فأصبح حِمْلا جديدا يُضاف إلى أحمالنا، رفض أن يبقى في البيت الواطئ بانتظار ابنه، هذا من حق كل أب يفقد ابنه، لكن ماذا نفعل له الآن، هل نحمل أجسادنا أم نحمله، قلتُ لأحدهم:

ـ الطريق إلى المزرعة لم يزل بعيدا، ابقَ مع أبي أمجد هنا، وفي العودة سوف نمر بكما.

رفع أبو أمجد رأسه، واستقام ظهرهُ، قال:

ـ أنا بصحة تامة، لا يعيقني شيء، سنواصل الطريق معكم.

بعد خطوات هبط رأسهُ مجددا وانحنى ظهره، وأسنده أحد الرجال وراحا يغذّان السير خلفنا، لاحت لنا المزرعة من بعيد، الشمس تصبّ عليها أشعّتها، فتبدو مثل معبد قديم يحجّ إليه الناس، لاحظنا ونحن نتابع المسير فوق الرمل، عدم وجود آثار أقدام واضحة، لم تكن هناك علامة على وجود بشر وطأ هذه الأرض في وقت قريب، إلى الجهة البعيدة تلوح بعض الكثبان الرملية، وصلنا المزرعة القابعة تحت الصمت، لا حركة لإنسان أو حيوان، الأشجار وحدها تتمايل كأنها

تعيش رقصة الحياة بلا توقّف، منظر لا يتّسق مع ما نعيشه مطلقا، الكائنات النباتية والعصافير تواصل رحلة الحياة بنضارة وتفاؤل، ونحن نواصلها قاطعين حقولا من ألغام اليأس والجوع والخطر، طرقنا باب الكوخ على الشاب البدوي، لم يجبنا أحد، لا وجود لصديقنا البدوي، ذهبنا إلى كوخ مجاور، قالوا لنا ذهب الشاب البدوي في رحلة صيد ولم يعد بعد، سألت رجلا وقورا يسكن المزرعة:

ـ هل زاركم شاب نهار أمس في أواخر العصر أو عند الغروب؟

أجاب الرجل:

ـ لم نلحظ غريبا يدخل المزرعة أو الأكواخ المحيطة بها. ثم أضاف:

ـ إذا كنتم بحاجة لنا في أي شيء نحن في خدمتكم.

شكرنا الرجل وسألته بعد أن أخذته جانبا:

ـ ما رأيك، أين تتوقع أن يكون الشاب الآن، لقد أخبرنا أنه ذاهب إلى هذه المزرعة مع أصدقاء له.

ـ لو أنه وصل هذه المزرعة عند الغروب لشعرنا بوجوده، لا يمكن أن يختفي الغريب في منطقتنا الصغيرة هذه.

ـ هذا يعني أنه لم يصل المزرعة؟

ـ قد يكون وصلها وغادرها بسرعة دون أن يثير انتباه أحد.

ـ والأصدقاء الذين معه؟

ـ هل كان معه أصدقاء؟

ـ نعم كما أخبرنا بذلك.

ـ هل رأيتم الأصدقاء بأعينكم؟

ـ كلا هو أخبرنا أنه بصحبة أصدقاء.

ـ لا أظن ذلك، لم يصلوا إلى هنا، ربما وصل وحده وعاد وحده.

ـ لكنه لم يعدْ إلينا؟

ـ طريق الصحراء ليس آمنا في الليل، هناك حيوانات مفترسة، تظهر الذئاب هنا أحيانا.

شعرتُ بألم مفاجئ يجتاح رأسي، وهاجمتني أشكال مختلفة لحيوانات مفترسة، شكرتُ الرجل الوقور وغادرنا المزرعة عائدين، كان أبو أمجد قد جلس على الأرض أكثر من ساعة، رأيت وجهه يتساءل بلهفة، ثم قال بصوت عال:

ـ أين ابني، هل توصلتم لشيء؟

لم يستطع أحد منّا أن يجيبه عن سؤاله، واصلنا طريق العودة، أخبرت الجميع بما قاله الرجل الوقور حول الذئاب المفترسة عدا الأب، قال أحد الرجال بصوت خفيض:

ـ غيِّروا مسار العودة، دققوا النظر، فلنحاول الحصول على أي أثر.

تفرقنا عن بعضنا في مسافات متباعدة، صحراء رملية لا يحدّها شيء سوى أفق السماء، حرارة الشمس تتصاعد، أشعتها تصفع وجه الأرض فتبدو أكثر شراسة وصمتا وتوحّشا، بدأنا ندقق في الرؤية، نشحذ البصر بأقصى طاقته، علّنا نعثر على شيء يدلنا أو يقودنا إلى الشاب أمجد الذي لا نعرف أين هو الآن، مرة أخرى انحنى ظهر أبو امجد، أسنده احد الرجال مجددا وتباطأت خطواتهما، ذهب أحدنا نحو جهة اليمين، كان جسده يتصاغر كلما ابتعد عنا أكثر، ناديته أن لا يبتعد كثيرا، لم يسمعني، أرض الصحراء تنحني قليلا، ربما هو تل أو هضبة صغيرة، ضاع الرجل خلفها، لم أعد أبصره، أبو أمجد والرجل الذي يسنده يخطوان على مهل بعيدا عني، بعد مدة بدت كأنها دهور رأيت ذراع الرجل عند التلال البعيدة تشير إلى شيء ما، لا يزال جسمه صغيرا، لم أتكهن بشيء معيّن، ولم أعرف طبيعة إشارته، مشيتُ في الاتجاه الذي يقودني إليه، قصرتْ المسافة بيننا، بدأتُ أفهم إشارات ذراعه، إنه يستدعيني إليه، حثثتُ الخطى أكثر وأسرع، صرتُ على مقربة منه، بل إلى جنبه بالضبط، أشار ناحية كثيب رملي، تتكور فيه كتلة سوداء، بيننا وبينها مسافة ليست بعيدة، في طريقنا نحو الكثيب المحدد، رأينا آثار أقدام مطبوعة على الرمال، تشبه آثار أقدام الكلاب، لم تكن الكتلة السوداء ظاهرة كلها فوق الرمال، صرنا على مقربة منها، أمتار قليلة ونصل إليها، الغبار يغطي الجزء الظاهر منها، رأيت أصابع كف تشرئب نحو السماء، شاخصة إلى الأعلى من بين الرمال، بدت كأنها لوحة استغاثة صارخة، ثم رأيت شعر رأس أسود مطلي بطبقة غبار

مصبوغة بدم خفيف، تسارع نبضي، وبدأت أسمع لهاث الرجل الآخر، صرنا الآن عند الكتلة تماما، لاحت لي عينان مفتوحتان مستغيثتان يكسوهما الغبار الرملي الناعم، ووجه مصاب بنوبة رعب أصابتنا في الصميم، كان أمجد ممزق الأشلاء، جلسنا على الأرض، أثقلنا صمت الرمال ووحشة الموقف، البكاء لا ينفع ولا الأسف، بل كل شيء لم يعد ذا فائدة، جُثَّة جديدة تدخل ضمن وليمة الحرب التي لا تشبع من لحمنا ودمائنا، رأينا الرجل الذي أوكلنا له أبا أمجد من بعيد يخطو وحده إلينا، لم نر معه الأب المنكوب بابنه، وعندما بلَغَنا سقط على وجهه، ثم ما لبث يهيل الرمل على رأسه، بدأنا نلم أشلاء أمجد برفق، في الكيس الأبيض الذي جلبناه معنا من أجل الخضرة، تعاملنا مع جسده كأنه حيّ، نضع الأشلاء بهدوء في الكيس كي لا يتألم، أدخلنا عظام ساقية أولا، ثم جسده المأكول، بعد ذلك حمل أحد الرجال ذراع أمجد الوحيدة وأدخلها في الكيس، كأنه يحاول إعادتها إلى مكانها في الجسد الممزق، وأخيرا حملتُ رأسه بين يديّ، فبادرني مطلعه بنظرة عاتبة، صرخ أمامي وجهه المشوه بأنياب ذئاب جائعة، سمعته يقول (لماذا تركتموني أذهب إلى المزرعة؟)، ربطنا فوهة الكيس بإحكام، بدا منفوخاً للرائي، فكل من ينظر إليه يتوقع أنه مليء بالخضرة، حمل أحد الرجال أمجد على ظهره، سمعته يقول (الكيس ثقيل، كسر ظهري)، حثثنا السير إلى بيتنا الصغير الواطئ، ذهب الذي يحمل الكيس في مسار مباشر باتجاه البيت الواطئ، وذهبتُ أنا إلى أبي أمجد، كان جالساً على الأرض، وجهه إلى الأسفل وظهره منحن، عندما وصلته

سأل عن ابنه، لم أجبه بشيء، كرّر السؤال برجاء أب فقد كلّ شيء بفقدانه لابنه، قلت له:

ـ لم نعثر على شيء، لكنني أشعر أن أمجد بخير.

شعَّتْ فرحة مفاجئة في عينيه الكليلتين ووجهه المغضّن، نهض واقفا، واصلنا السير نحو البيت الواطئ، الصمت يحيط بنا، والصحراء تسخر منّا، الإنسان قلّما يتعظ ويتعلم من أخطائه، الكبار والصغار لم يصححوا الزلل الذي سبق أن وقعوا فيه، ثم أدرتُ وجهي إلى الرجل المسنّ الذي فقد كل شيء كما يبدو، سألته:

ـ منذ متى تلازمهُ نوبات العناد؟

ـ منذ أن ولدته أمه.

ـ كان عليك أن تربّيه على مصاعب الحياة ولا تبالغ في تدليله.

ـ لم يكن الأمر بيدي، أمه علّمته على الدلال وكبر العناد معه.

كنت أفكر بطريقة ما كي أخبره برحيل ابنه، خاصة أننا بدأنا نقترب من زريبتنا، قلت له:

ـ في كل الأحوال هذا لا يعفيك من مسؤولية التربية، علينا أن نصحح أخطاء أولادنا.

ـ حاولت ذلك، وأمه منعتني.

ـ والنتيجة ماذا ستكون برأيك؟

ـ عناد مستمر طبعا، وأخطاء مضاعفة يرتكبها الآباء والأبناء معاً.

ـ ليس هذا فحسب، إنما ستكون هناك نتائج وخيمة نحن نتحمل مسؤوليتها.

ـ ماذا تعني بقولك هذا؟

ـ أعني عليك أن تتوقع كل شيء بخصوص ابنك، قد لا يعود لك سالما.

بغتةً كما لو أن حجرا ضربه على رأسه، سقط على الأرض، سكن جسده تماما، لم تبدر منه حركة من أي نوع، حاولت حمله والسير به، لم أستطع ذلك، بعد حين رمشت عيناه، تحركت يداه، نهض بنصف جسده على الأرض، وجدني جنبه، سأل بصوت متعثر:

ـ هل مات ابني؟

النافذة

-1-

يرتدي ملابس القتال، يتزيّن بحزام العتاد، يضع البندقية على كتفه، يفوح منه عطر التراب المفدّى، تراب وطني، ملاذي وملاذ أطفالي، يطلب مني بكلمات كأنها وصيّة المخلصين المتأهبين للرحيل:

ـ لا تنسي ذكرياتنا الجميلة، احرسي الأطفال بعيونك.

أنظر إليه والدمعة تترقرق في عينيّ، يسيل خيط من الدمع على خدّي، يمسحهُ هو بأناملهِ الحنونة ويقول:

ـ كما وعدتكِ في المرة السابقة حين ذهبتُ للقتال، سأعود هذه المرة أيضا، فلا تجزعي، بكاؤك يؤذيني.

أكابد نفسي كي أبدو مرحة مستقرة، أتبسّم أمام عينيه، لكن لساني يتحجّر في فمي، وتخونني الكلمات، في قلبي هدير موّار، يمزق روحي وجسدي، حلم خبيث يدهمني، لا أستطيع البوح به، صوت وصداه سيبقى يتردد في رأسي إلى الأبد، يقول الصوت:

ـ زوجكِ لن يعود لك هذه المرة!..

قفزت من نومي، زوجي يغفو إلى جانبي بوجهه الوديع، أنفاسه كما عهدتها تنشر الأمان في روحي وقلبي وتجعل البيت جنّة من أمان وسلام، لكنني لم أستطع النوم بعد هذا الحلم، في الصباح تفاجأ باستيقاظي، واحمرار عينيّ، ورأى غمامة حزن تكسو ملامحي، لم يقل شيئا في البداية، لكنه حين أكمل ارتداء ملابس الرحيل، وتمنطّق بالرصاص، همس في أذني:

ـ سأبقى معكِ إلى الأبد يا ....

-2-

دائما يحصلُ هذا في ليالٍ مشحونة بالشوق، يقفُ الرجل نفسه مرةً أخرى فوق رصيف الشارع، تحت النافذة، ويحتوي بعينيه وجه المرأة التي أُغرِم بها وسعى كي تكون زوجة له، كان وجهها يطلُّ عليه بشكل جانبيّ من خلل الزجاج النظيف، كأنها تنظر إلى شيء ما في جدار غرفتها، طالت وقفتهُ في هذه الليلة، كم تمنّى لو أنها تستديرُ إليه بكامل وجهها الدائريّ المضيء، وحينما أدارتْ وجهها فعلا، بدا لهُ ذلك الوجه البلّوري متوهجاً، وتوقع أنّها ستراه، فهو لا يريد شيئا سوى أن يرى وجهها ويشعرُ أنها لا تزال تتلهّف لرؤيته، إنه سيكتفي بذلك، وسوف تنطفئ نيران الشوق بمجرد أن تتنبّه لوقفته مقابل النافذة، لكنها كانت ساهية ساهمة، تطلقُ بصرها نحو آماد بعيدة، كأنها لم ترَهُ واقفا متلهّفاً لها بأشواق العمر كلّه.

-3-

ارتقيتُ سلّم البيت درجةً.. درجةً.. إلى الطابق العلوي من البيت، كان جسدي منهكا مكبّلا بالحزن وألم الفقدان، دخلتُ غرفتي وجلست على مقعد من الخشب المغلّف بالإسفنج وقماش وردي من القطيفة، كان المقعدُ محاذياً للشبّاك المطلّ على الشارع الرئيس للحي، هذا هو مكاني الثابت والمحبَّب إلى قلبي، وكان طفلي يلعبُ مع جدّتهِ ويلاطفها بصوته الرقيق الذي يتواصل إليّ بين حين وآخر، تطلّعتُ إلى أثاث غرفتي، فرأيتها تلمع كما لو أنها أُدخلت توّاً لهذه الغرفة، حتى أنني تخيّلتْ بأن هذه الليلة هي ليلة زفافي، استنشقتُ عطرَ الياسمين الذي انتشر في أرجاء الغرفة، ثم أدرتُ رأسي نحو السرير الذي يحتلّ مساحة كبيرة من غرفتي المرتّبة بشكل غاية في الجمال، كان غطاء السرير يلمعُ أيضا، أبيض ناعم الملمس باردا، أما الوسائد المطرّزة بأزهار ملوّنة بالبنفسج، فهي الأخرى بدت عذراء كأنها مهيّأة خصيصا لهذه الليلة، إنها ليلة زفافي على حبيب العمر، ورحتُ أستحضرُ أحداث تلك الليلة التي لا تُنسى، توهّجت الغرفة في قلب ذاكرتي، رأيتُ أشياء زوجي، صورهُ، بذلة عرسهِ البيضاء، قميصهُ الأزرق، مفكرة خواطره عن الحب، قنينة عطره المفضّل، هذا العطر الذي كان لا يفارقه لحظة، فما أن يعود من جبهات الإباء ويقبّل أطفاله ويقبّلني على رأسي وجبيني بحنان، حتى يدخل الحمام من فوره، يصطحب قنينة العطر معه، يخرج كأنه باقة ورد تفوح بالبهاء، كان يقول

عن هذه اللحظات بأنها تبقى معي، أحملها في ذاكرتي لتمتص لحظات التعب والخوف والقلق والتوتر في جبهات القتال.

-4-

نهضتُ من مقعدي المحاذي للنافذة، جلستُ على حافة السرير، لم أعدْ أسمع أي صوت أو حركة، انفصلتُ عن عالم الليل، تعلقتْ عيناي بالبذلة البيضاء التي تشخص الآن أمامي على الجدار، كان زوجي قد تجمّلَ بها في ليلة الزفاف، فبدا لي كأنه ملاك هبط من السماء، في إجازاته الماضية، كان يشعر بالحزن حين يرى بذلته ملصقة على الجدار دون اهتمام، وكان يلحّ عليّ أن أحتفظ بها في الدولاب المخصص، لا أن أتركها على الحائط يكسوها الغبار، كان حديثه مشوبا بالألم لكنني كنت أضحك في سرّي، فيستغرب زوجي ويسألني بحزن:

ـ ألا تعني بذلتي هذه شيئا لك؟؟

أضحكُ حين أرى ملامح القهر في وجهه، وأقول له:

ـ كلما أرى بذلتك هذه، أشعر بوجودك معي، وأنني لست وحيدة، كأنك لست غائبا عني.

حينئذ يكتشف زوجي نبرة الصدق التي تتوهج في كلماتي، وإجازة بعد أخرى، لم يعد يحتجّ عليَّ، بل ترك لي بذلتهُ أملأ بها ليالي العذاب والوحدة، حين يغادرني إلى مواقع القتال في الجبهات البعيدة.

كنتُ في غيابه أتفرّسُ البذلة كأنها جسد ينبض بالحياة، وفي لحظات معينة، كانت تتوهج البذلة وتمتلئ فجأة بالجسد الطويل والقامة الفارعة، لدرجة أنني كنتُ أرى زوجي يقف قبالتي بتلك الابتسامة الدافئة التي كان يحتفظ بها حتى آخر لحظة من مغادرته إلى السواتر، كان صوت طفلي قد وصل إلى سمعي مجدّدا، فعادت البذلة إلى ما كانت عليه، ساكنة على الجدار بصمت.

نهضتُ ونظرتُ إلى الخارج من خلل زجاج النافذة، كان الليل قد هبط على البيوت فامتصّ حركة الشوارع، لم أرَ شيئا في الخارج، كل الموجودات تتلفّع بالغموض، لكنني كنت أسمع هدير محركات السيارات وهي تمرق بجانب بيتي، شعرتُ أنني لا أبصر شيئا في هذه اللحظات سوى أشياء زوجي وبذلته، أسدلتُ ستارة النافذة، وجلستُ على المقعد الإسفنج ونظرتُ إلى البذلة، ثم استعدتُ تلك الطرقات التي اعتدتُ عليها من زوجي، كان حين يصل من أرض الموت، يقف عند الباب متريّثا ثم ما يلبث أن يطرقه بطريقة مميزة، فكنتُ أهبُّ من مكاني حتى لو حدث ذلك في وقت متأخر من الليل، طرقةٌ.. طرقةٌ.. وبعد برهة.. طرقةٌ ثالثة... وها أنا الآن أنظر إلى بذلته البيضاء التي لم تعد تمتلئ مرة أخرى بالجسد المضيء، إنني أنتظر في هذه اللحظات طرقته المميزة.. إنني ما زالت آأمل أن أسمعها مرة أخرى.

-5-

رنّتْ نغمة (الموبايل) الخاص بالزوجة، تحدَّث أحدهم إليها، قال:

ـ أنا صديق زوجكِ، أعيش معه في ساتر واحد، إنه بخير ولا يشكو من شيء.. طلب أن أخبركم بأنه سيأتي إليكم في الأيام القليلة المقبلة.

ثم أغلقتْ جهازها، شعرتْ بفرحٍ آسر، لقد أسعفتها هذه المكالمة المفاجئة، وأنقذتها من وحدتها وذكرياتها، إنها كانت تتوقّع أن زوجها سيبعثُ لها برسالة طمأنة، لكن ما يثير الحيرة في نفسها، لماذا لم يتصل هو؟ وبقدر ما أفرحتها مكالمة صديقه، جعلتها تعيش قلقا من نوع آخر، وتكالبت الظنون على رأسها، فاتصلت برقم زوجها، لكنّ الردّ كان خارج الخدمة، أو مغلقا، تضاعفت حيرتها وتنمّرَ الخوف في أعماقها، في الصباح هرعتْ إلى الموبايل واتصلت به ثانيةً لكن لا جواب، في الظهيرة والعصر اتصلتْ أيضا ولا جواب، ثم هاتفتْ صديقه ولا جواب، حاولتْ أن تجد أعذارًا تقمع خوفها وهواجسها، وفكّرتْ بأنه يريد أن يفاجئها بحضوره، ليزيد من شوقها إليه، شعرتْ بالراحة، تخيلتْ نفسها كحمامة بيضاء بانتظار الفرح، وراحتْ تحلّق في أجواء البيت، وضعتْ الزهريات هنا وهناك، زهرية على حافة النافذة كان يفضّلها على سواها، تعدّلُ من وضع هذه اللوحة أو تلك، تنثرُ عطر الياسمين فوق سريرها، تنظّف وتلمّعُ أثاث غرفتهما المشتركة، تغسلُ أشياءه، تنظف قنينة العطر بورق الزهر، تزيح الغبار من قماش

بذلته فتبدو كأنها حلّة زاهية، إنها في هذا الوقت العصيب، تنتظر في لهف وشوق طرقتهُ المميزة على الباب، طرقة.. طرقة.. وبعد برهة.. طرقة ثالثة.

-6-

أعددتُ كلَّ شيء للقائه، ثم جلستُ على مقعد الخشب في محاذاة النافذة، ورحتُ أنظرُ عبر الزجاج إلى باب البيت المُضاء بمصباح أحمر شفاف، لعلهُ سيصل الآن، من يدري؟ أو ربما بعد ساعة وقد يأتي في الليلة القادمة، ثم شعرتُ أنني بحاجة إلى النوم، قبل ذلك استحضرتُ وجه زوجي وقامته المديدة، رأيتُ بذلتهُ وهي تمتلئ بجسده، في اللحظة نفسها سمعتُ صوت طفلي يضحك بكركرة جميلة مع جدته، تراجعتُ إلى الخلف، جلستُ إلى جانب النافذة بانتظار وصول الحبيب، هكذا أنا دائما أبقى بانتظاره، وفي كل ليلة، في مثل هذا الوقت، أرتقي السلّم إلى غرفتي، أدخلها، أتفحص أشياء الغرفة، ثم ألقي بجسدي الذي أنهكه طول الانتظار، على المقعد قرب النافذة، كان الشيء الوحيد الذي يتملّكني في هذه الغرفة، بذلته البيضاء، إنني الآن أوزّعُ نظراتي بين البذلة والنافذة، وحين أيأس من عودته، ألوذ في بذلته فأجد فيها خير ملاذ، وفي هذه اللحظات التي امتلأت فيها البذلة بالجسد الغائب، رأيتُ شبح رجل يقف على الرصيف قبالة النافذة، لم أتيقّن من أنه زوجي، ورغم أشواقي ولهفتي عليه، أسدلتُ الستارة فانطفأت النافذة، ونقلتُ بصري إلى البذلة، إلى الشيء الحقيقي الوحيد الذي يبثُّ الأمان في

كياني، أحسستُ بحرارة تشتعل في رأسي، ورجفة شديدة تجتاح جسدي، تفرّستُ في البذلة البيضاء، امتلأتْ، فاضتْ بالجسد الأليف، تقدمّتُ صوبها، إنها لم تزل ممتلئة، فائضة، تقرّبتُ منها كثيرا، احتويتها بذراعيّ وألقيتُ برأسي في دفء الصدر الواسع، غبتُ عن كل شيء وأنا أستمع لطرقةٍ مميّزة.. طرقة.. طرقة وبعد برهة.. طرقة ثالثة.

منحوتة العشق

في قرية (أم البط) تسكن عائلتي وعائلة زوجتي التي كانت تمتلك مزرعة صغيرة في تلك القرية، كانت أمي كلما احتجنا لشيء من المزرعة تأخذ كيسا متوسط الحجم، تلتقي زوجتي (قبل أن أتزوّج منها)، تسلّم عليها ويتجاذبان أطراف الحديث، وأكثره كان يدور عن شؤون النساء، وكانت أمي تصرّ على أن تسألها عن الفرق بين نساء الأمس ونساء اليوم.. فتجيبها الفتاة المنحوتة بجمال باهر:

ـ لا يوجد فرق كبير بينهما ولكن بنات اليوم يعرفن تفاصيل الحب والحياة والثقافة أكثر من نساء الأمس، وأصبحن أكثر نرجسية من عاشقات الأمس. وتضحك ملء فمها.....

ثم تقول لأمي:

ـ متى ستزوجين ابنكِ؟ (تقصدني أنا).

تجيبها أمي:

ـ شباب اليوم ليس عليهم اعتماد، يفكرون بكل شيء إلا الزواج، ولكن ماذا تقصدين بنرجسية العاشقين؟

ـ أقصد أن العاشق قد يحب نفسه أكثر من المعشوق فلا يعترف له بحبه إلا ما ندر.

ـ لماذا لا يعترف له إذا كان يحبه فعلا؟

ـ ليس من السهل على العاشق النرجسي أن يعلن مشاعره، فالنرجسية العالية تمنعه من البوح بعشقه للمعشوق، لهذا يصعب كثيرا أن يعترف للمعشوق بعشقه، ولكن من جهتي أرى أن الإنسان يجب أن يحب نفسه ويحترمها حتى يبدع وينجح، وفي هذه الحالة سيكون نرجسيا، وسوف يجد صعوبة كبيرة في البوح بعشقه، أما أنا شخصيا فقد تنبّهتُ لهذه المشكلة، لأنني نرجسية، ومع ذلك عالجتها بالحوار مع نفسي، وأقنعْتُها بأن أتعامل مع المعشوق بطريقة عفوية صادقة أتفوق فيها على نرجسيتي وحبي لذاتي –فيما لو أنني عشقت–.

قهقهتْ قليلا وواصلت كلامها:

ـ إحدى صديقاتي لها رأي جميل حول هذا الموضوع، تقول فيه، إذا أحببتِ أحدا وتشعرين أنه يستحق حبك لا تخفين عنه ذلك، فالحياة أقصر بكثير من أن نخفي عشقنا.

تضحك الفتاة المنحوتة الجميلة مرة أخرى وتقول لأمي من باب المزاح:

ـ لو رأى ابنكِ رسوماتي سيقع في حبي.

بعد أيام، نقلتْ لي أمي هذا الحوار الذي دار بينهما، فسألْتُها:

ـ هل كانت زكية جادة بكلامها؟

قالت أمي:

ـ كانت عيونها مليئة بالإعجاب.

فسألتُ أمي:

ـ بمن كان إعجابها؟

قالت:

ـ بأبيك!

ثم ضحكت عاليًا وأضافت:

ـ كأنك غشيم لا تعرف أنك أنت المقصود.

ظلت كلمات أمي تدور في ذهني، لقد كنت معجبًا فعلا بعيون المنحوتة الفرعونية، عينان واسعتان سوداوان بياضهما ناصع، ترتسم فيهما شخصية زكية البارعة في ذكائها كما شاع عنها في قرية أم البط، أما الرموش فقد كانت طويلة بحيث ترتمي على وجنتيها وترتفع في تقوّس مشدود نحو حاجبيها، فتبدو مثل عيون امرأة بدويّة كحيلة، أو امرأة فرعونية تتشكل روحها وشخصيتها في عينيها، إن مجرد النظر إلى عينيها سوف يُبطِل الفكرة المتداوَلة عن أبناء الريف، بأنهم لا يهتمون بالثقافة والجمال، هذا تصوّر غير صحيح، فمعظم عباقرة الأدب والفن والسياسة خرجوا من أعماق القرى، مثلا صعيد مصر أعطانا أعظم المبدعين العرب، وريف العراق أنجب مبدعين تلهج بهم الذاكرة العربية إلى الآن، وأرياف أخرى في دول عربية كثيرة، ليس صحيحا أن نساء وأبناء الريف لا يتمتعون بحس جمالي وذكاء وتميّز كما يُشاع عنهم.. عندما سمعتُ من أمي عن رسومات زكية قلتُ لها:

ـ في المرة القادمة أنا مَنْ سيجلب ما نحتاجه من مزرعة الجيران.

ضحكت أمي وقالت:

ـ سأخبرُ أباك بالأمر حتى يطلبها لك قبل أن يخطفها غيرك.

رجوتُ من أمي التريّث إلى أن أُخبرها أنا بذلك. في عصر اليوم نفسه، يتهادى أمام باصرتيّ، جسد أهيف، فتاة تضع على كتفها قربة ماء من المعدن، وتمضي بغنج عفوي صوب ضفة النهر لتجلب الماء، وحدها تتهادى بين ظلال الأشجار، تشد وسطها بحزام أسود مزركش، قدّها يتمايل كغصن رمان، وجهها دائري مشرق، ناصع البياض، أجلس على جانب الطريق، أو بالأصح أتخفّى خلف شجرة توت كثيفة، أنتظر عودة زكية من النهر، أريد فقط أن أرى تقاطيع جسدها وهل يشبه روحها التي رأيتها مرسومة في عينيّ أمي، عادت زكية كأنها تمشي على ماء بحيرة ساكن، أصابع قدمها تمس وجه الأرض بلطف وحذر كأنها لا تريد أن تُثقل عليها، جسدها مُضاء بهالة من الهدوء والجمال الفرعوني القمحي، على الرغم من بياض بشرتها، في مرحلة سابقة فُتِنْتُ بالملكة الفرعونية نفرتيتي، قرأتُ عنها أنها جوهرة النيل، وقد قيل أن هذه الملكة المصرية العريقة كانت تجسّد الجمال الخلاق إلى حد أن الجميع كان يعتقد بأنها آلهة، كنت أقرأ الروايات والكتب التي تصفها وتفصّل حياتها وأفعالها، شغلتني عيناها منذ زمن مبكّر من عمري، حلمتُ أن أعشق امرأة لها عينان فرعونيتان مثل عينيّ نفرتيتي وقد قرأتُ أن معناها "المرأة الجميلة التي أقبلت"، وها هي زكية تُقبل عليَّ، حاملة هاتين العينين المعطّرتين برائحة التاريخ، عندما وصلتْ قربي وأنا خلف شجرة التوت، تعمّقتُ في عينيها

ومشّطتُ بتركيز تقاطيع وجهها، ارتجفتُ فجأة عندما حسمتُ أمري، إنني أعشقها وسوف نطلبها للزواج.

بعد ثلاثة أيام أفرغتُ كيس الخضار مما تبقّى فيه، وحملتهُ وقصدتُ مزرعة الجيران، على الرغم من أن الكمية التي جلبتْها أمي لم تنفد بعد، عندما رأت أمي ذلك قالت بضحكة مشاكسة:

ـ لسنا بحاجة الآن إلى شيء من المزرعة.

قبل دخولي المزرعة حاولتُ أن أعرف مَنْ المتواجد في داخلها، فإذا كان معها أبوها أو أمها لا فائدة من ذهابي لها، سياج المزرعة المستطيل يتكون من سعف النخيل المرصوف إلى بعضه بعض، تتخلله فراغات، نظرتُ من أحدها، فرأيتُها تسقي شجيرات الطماطم وسمعتُ صوتها الخفيض وهي تدندن بأغنية ريفية، ثم غيَّرتْها إلى أغنية عاطفية كان يلهج بها الشباب العاشقون، كانت زكية وحدها في المزرعة، أصابتني رجفة مفاجئة، واصلتُ سيري، دخلتُ المزرعة، من بعيد عندما رأتني زكية، تركت انشغالها بالسقي، ونهضت واقفة في مكانها، لم تتحرك نحوي، بدت صامتة، هذه أول مرة أدخلُ فيها مزرعة الجيران، تفصلني الآن أمتار قليلة عن زكية، تأكدّ لي حدسي السابق، ها أنني أرى عينيّها الكحيلتين، بدأ ينطلق منها بريق مستقيم نحوي، كأنه سهم من رذاذ بارد، سلّمتُ عليها، فردّت كما لو أنني أحد أفراد أسرتها، ثم مدت يدها لتأخذ الكيس مني، قلتُ لها:

ـ أنا لستُ في عجالة من أمري.

يوجد كوخ صغير في إحدى زوايا المزرعة معزول في ساحة مربّعة الشكل بدت كأنها حديقة منفصلة عن المزرعة، أرضها معافاة مزروعة بورود وأزهار بألوان أخّاذة، مضتْ زكيه نحو الكوخ، دخلَتْهُ، بقيتُ أنا في الخارج، بعد دقائق خرجتْ وأومأت لي أنْ أدخل الكوخ وقالت:

ـ استرح قليلا، أنت لست بغريب.

شعرتُ بالهدوء والتوازن ودخلتُ الكوخ، وجدته نظيفا مفروشا بصورة غير متوقّعة، قمّة من قمم الجمال، تناسق ألوان الفراش، الوسادة الزرقاء الناعمة، وثمة بعض لوحات للرسم تتوزع الجدران، مناظر طبيعية، ووجوه (بورتريه) مشرقة، ومنحوتات صغيرة غاية في التعبير الجمالي، أعرف أن زكية ترسم الطيور، والعيون الفرعونية، ووجوه النساء البدويات كذلك، ولها مواهب عديدة، أبناء الريف موهوبون وليس كما يُشاع عنهم، بدتْ كأنها تعيش خارج عالم الريف بل خارج الزمن، وكانت ثمة مكتبة صغيرة في زاوية الكوخ القصية، نظرتُ إليها، فلفتَ انتباهي كتاب بغلاف ابيض، لاحظتُ عنوان الرواية التي طالما عشقتُ قراءتها، رواية إريك ماريا ريمارك (للحب وقت وللموت وقت)، فأيقنتُ على نحو لا يقبل الشك أنني بإزاء ذوق متميز.

مدّتْ يدها وأخذت الكيس وخرجتْ، قالت:

ـ لا تتعب نفسك، ابقَ مع الرسومات والكتب، سأعود لك سريعا.

لم أتحدّث لكم عن عطر الكوخ، عطر البرتقال الذي ملأ صدري فصار العالم كله بنكهة ساحرة، كيف يمكن لإمرة أن تصنع من مكان صغير (كوخ) بمزرعة في عمق الريف، مملكة للجمال بهذه الطريقة، أي ذوق هذا الذي يجمع الجمال بأنواعه الخارقة في كوخ لا يتجاوز ثلاثة أمتار طولا وعرضا وارتفاعا، عادت بالكيس يغصّ بالخضار، وقالت بصوتها الرخيم:

ـ ما رأيك ببيتي الصغير؟

ـ انه مملكة متكاملة وليس بيتا صغيرا.

ـ مملكة؟؟

ـ نعم مملكة من طراز خاص.. تشبه مملكة نفرتيتي.

ـ يا لها من ملكة، عيناها حضارتان، أو تجمع بين حضارتين، حضارة الفراعنة وحضارة الرافدين.

لم أفهم قصدها فيما قالته من كلام، فغيّرتُ مسار الحوار، سألْتُها:

ـ ما رأيكِ بالرسم وما الأقرب إليك هو أم النحت؟

ـ بين الاثنين يوجد فارق أراه واسعا، الرسم يمنحك صورة تبحث فيها عن الروح، أما المنحوتة فتمنحك روح تبحثُ فيها عن الصورة.

ـ فعلا هو فارق كبير.

ـ ولأنني أحببت الرسم أولاً، تجدني متلهفة للبحث عن جمال الأرواح في الصور.

ـ وهل تجدين ما تبحثين عنه؟

ـ ليس دائما، لكنني أحثّ نفسي كي تكتشف الجمال المخبوء في أعماق الصور.

ـ ماذا تعني لك الصور؟

ـ الصور هي حياتنا نفسها، نحن لسنا أكثر من صور، فإذا كانت أرواحنا جميلة صارت صورنا جميلة أيضا.

ـ هذا يعني أن القبح ليس في الصور.

ـ بالضبط، القبح يكمن في الروح.. مثلما هي المكان الملائم للجمال.

أنا لا أفهم كثيرا في نقد الرسم أو النقد التشكيلي، ولكن عندي إطلاع على بعض المدارس الفنية، ولا أفهم كثيرا في النحت، مع أنني مغرم بدافنشي ومايكل أنجلو، فحاولتُ أن أغيّر مجرى الحوار.. قلتُ لها:

ـ أتعلمين أنتِ على شبه واضح من نفرتيتي، أو كأنك امرأة بدوية ذات سطوة.

تبسّمتْ بوضوح فازداد إشراقها، وقلتُ لنفسي "ها أنك تفوز بكنز من كنوز الحياة النادرة". ردّتْ هي على تساؤلي:

ـ أنا لستُ أكثر من صورة، ربما تسكنني روح نفرتيتي أو الحسناء البدوية، المعارِف يقولون إنني ذكية.

ـ وجميلة أيضا، بل بالغة الجمال وموهوبة.

تبسّمتْ من جديد، ورأيتُ عينيها أجمل عندما تتبسّم.

ـ لا تطريني بالكلام، حاول أن تبحث عن وسيلة أخرى للإطراء.

من جديد لم أفهم قصدها، ورحتُ أفكر فيما تعنيه بالإطراء البديل، يبدو أنها فعلا تذهب إلى الأعماق في كل شيء، إنها امرأة من طراز النساء الفريدات، تُسحرها الخفايا، ولا تستمتع بالظاهر السهل، أو ما يتواجد في السطح، فهو منظور من الجميع، أما الأعماق فلا يصل إليها غير القادرين على الغوص بعُدّةٍ كاملة تقيهم الغرق، فيغوصون ويعودون إلى السطح محملين باللؤلؤ والمرجان، وبالجمال العميق.

سألتها:

ـ كيف أطريكِ بوسائل أخرى؟

ـ تكتب عني مثلا؟

ـ بالفعل أنا أفكر في ذلك.

ـ وماذا ستكتب؟

ـ عن الحب ومزرعة الجمال وملاحم الدم.

ـ ماذا تقصد بملاحم الدم؟

ـ الحروب التي أحرقت آمالنا وأضرمت النار في أحلامنا.

ـ ولكن أحلامنا غير قابلة للاحتراق.

نهضتُ من مكاني، خطوتُ إلى المكتبة، استعرتُ منها رواية (الأشجار واغتيال مرزوق) لعبد الرحمن منيف، وقلت لها:

ـ مثلما أنت تبحثين عن الأرواح في الصور، أنا أبحث عنها في الكتب، وخصوصا في الروايات، هذه الرواية لعبد الرحمن منيف قرأتها مرّتين ولم أكتشف أرواح شخصياتها بما يكفي، سأستعيرها منك.

ـ لك ما تشاء.. كرّر زيارتك، واعتبر هذه المزرعة ملْكاً لك هي وما فيها.

وتبسّمتْ.

شكرتُها وضحكتُ قليلا، وسألتها:

ـ المزرعة وما فيها فقط؟

فأجابت:

ـ الجار مثل النفس، له ما يشاء وما يطلب.

بعد شهور من زيارتي لها في المزرعة، انتقلنا من قرية (أم البط)، إلى مركز المدينة، ومعنا المنحوتة الفرعونية التي أصبحت الآن زوجتي رسميا.

فِصام

أفشيت سري لصديقي الوحيد، عشرة أعوام بل أكثر، وأنا أعيش عذابي وانصهاري، وعندما حكيتُ له عن خطتي التي سأنفذها من غير تراجع بصق في وجهي، وأحدث حفرة في جبيني.. اللعاب تدفق منها ثم بدأ يسيل على حافة أنفي وعبر شفتيّ وراح يتقاطر من حنكي، خطٌّ اللعاب قسم وجهي إلى نصفين، أحدهما يجثني على المضيّ قُدُما نحو هدفي، والآخر يقف مذهولًا صامتًا مليئًا بالحزن لما يحدث لي، إنه نصف عاجز، لا دور له فيما حدث أو فيما سيحدث هذه الليلة، لقد قرّرتُ أن أنفّذ خطتي من غير تردد إذ أنني كنت أفشل نتيجة الرأفة أو التخاذل الذي غالبا ما كان يجتاحني في اللحظات الأخيرة التي تسبق شروعي بالتنفيذ.. سنوات مضنية.. طويلة.. مليئة بالخراب.. قضيتها مع زوجتي رغما عني، الجدران وحدها المسؤولة عن هذا العذاب، الجدران التي كانت تفصل بيني وبين زوجتي، بيني وبين الآخرين، هي التي دمرت وجودي وأحالت حياتي إلى جحيم، إنني أتقدم الآن في طريق اللاّ عودة.. طريق المضي باتجاه الهدف المخطط له، حصل زواجي قبل أكثر من عشرة أعوام، لا أدري كيف سمحت لنفسي بارتكاب هذه الكارثة، كل شيء حدث وأنا في غفوة أشبه بغيبوبة ثقيلة دائمة، سبات متواصل، وفي عمق الليل، وفي ليلة الزفاف، شعرت بالفاجعة التي هبطت على روحي إلى هوة ظلماء سحيقة، سُحِقَ جسدي في حلكتها، كابوس مرير يملأ

نفسي بالصراخ الذي لا يسمعه أحد قطّ، فما أن أمدّ روحي على سرير النوم إلى جانب زوجتي حتى أشعر بالاحتقان يفور في خلايا جسدي، يطعنني ويحيلني إلى جمرة دماء مشتعلة وتوتر يصل حد الفزع، يجتاحني، مشاعري تصل درجة الغليان، وخوف دائم يركض في شرايين دمي، إنها تنام إلى جانبي أو أنا الذي ألتحق بها فأجدها بانتظاري على السرير، أخاف أن تمد يدها وتمس جسدي، يفزعني حدث كهذا، وإذا مدت يدها سأترك السرير ضجرا مصابا بقرف مقزز، أبتعد عن السرير حتى تغفو ثم أعود، وفي هذه الليلة، سيحدث الشيء نفسه، لكنني قررت أن أضع حدا لهذا العذاب، فأوقف حياة زوجتي كي تتهاوى الأسوار التي غالبا ما تلتف حول روحي وجسدي في كابوس أخشى أن يظل قائما في حياتي إلى الأبد، خطتي متقنة تماما، لا يمكن أن يطولها الفشل إلاّ إذا عدلت عن قراري تحت وطأة الخوف أو الشفقة، ابنتي الوحيدة يجب أن لا تشعر بما سأقوم به هذه الليلة، يجب أن أتصرف بذكاء حاذق، وأبدو هادئا مسالما بمزاج رائق مستريح، فنوبة التوتر التي كثيرا ما تبدأ مع اللحظات الأولى لحلول الظلام يجب أن لا تظهر اليوم، يجب أن أكون زوجا رؤوفا حقيقيا وأبا كله محبة وشفقة، انتصف الليل وعمَّ سكون مخيف أرجاء البيت، كنت أتصور مشهد موتها قبل أن يحدث، كنت أرى جسدها الأبيض الهزيل، والمذهل في الأمر أنني كنت أتمنى أن يحدث هذا المشهد قبل هذه الليلة بكثير، أتمنى أن لا افشل، أتمنى أن لا تنقلب خطتي إلى حلم هش كذوب مخادع، في ليلة الزفاف، في الساعة التي سبقت طلوع

الفجر، في تلكم الدقائق الستين، كنت أتمنى أن أتخلص منها، أن تغادر الحياة، لكن الأمر العجيب الذي سيحدث دائما، هو افتقادي لها إذا ابتعدت عني إلى مكان بعيد، فأنا لا احتمل ذلك نهارا واحدا، كنت أتمناها إلى جانبي إذا غابت، أشعر بأنفاسها، وأسمع صوت ضحكتها، العجيب أن ضحكتها وهي بعيدة، تبدو ساحرة، ممتعة حد الدهشة، ولكن حين أجدها بين يدي، قريبة من نظري، سيخفت كل شيء، وستنقلب ضحكتها إلى عذاب مرير، دخلتُ غرفة النوم، خطوات التنفيذ بسيطة جدا، تخلو من التعقيد وأنا احفظها جيدا، كان السرير كبيرا أسطوريا واسعا، وكان الفراش ابيض حريريا وثمة فراشات حمر تطرز أذياله الساقطة نحو الأرض، وكان المصباح الأحمر المتوهج يحيل الغرفة كلها إلى بحيرة دم حمراء غامقة أثارت في أعماقي رغبة جامحة لانجاز هدفي على أفضل وجه، كانت زوجتي نائمة وحزمة الضوء الدموية تنسكب بقوة على وجهها، كانت تستلقي على ظهرها ورأسها يميل إلى الجانب قليلا، خطوت ببطء شديد لا أريد أن تستيقظ فتفشل خطتي للمرة الألف!! وقفت إلى جانب السرير انظر بهدوء إلى عينيها المغلقتين وشعرها الأسود اللامع الذي يتكوّر بسكون فوق صدرها ووسادتها، بدت لي وديعة، مسالمة، وعجبت من نفسي، لماذا أفكر بالقضاء عليها.. بكيت.. وعرفت أنّ رأفتي التي تتكرر دائما في لحظات كهذه ستقودني إلى فشل آخر، لكنني رأيت شيئا ما يتحرك إلى جانبها، فوق فراشها، أنهيت بكائي، كان الجدار قد بدأ يتأسس.. يولد لتوه، وكنت أرى الطابوق الحجري السميك يتساقط

بعضه فوق بعض بانتظام عجيب حتى تنامي الجدار وأصبح سورا شاهقا.. لم اعد أرى زوجتي، السور فصلني عنها وعن الحياة برمتها، انطفأت رأفتي بها، نظرت إليها نائمة فوق السرير وفي لحظات كهذه كنت اشعر بالحب تجاهها وفي الوقت نفسه أخشى أن تفتح عينيها وتراني انظر إلى وجهها، أصابني الفزع وأنا أتوقع صحوتها، ولذلك أنا أتحاشى أن أطيل النظر إليها وخصوصا عندما تكون مستيقظة، كنت ابعد نظري عن عينيها وإذا حدث أن التقت، فإن هذا يحدث لأمر خارج قدرتي، يحدث عنوة ومع ذلك لا يستمر إلا لحظات خاطفة، جلست على السرير المدمّى؛ كان اللعاب لا يزال يهبط من جبيني ويسيل على انفي ويقسم وجهي إلى نصفين، مددت جسدي ببطء إلى جانبها، كانت المسافة بيني وبينها تكفي لنوم ابنتنا بيننا، وكنت احرص على أن تبقى هذه المسافة، بل أحاول أن أزيدها، دائما، أما هي فتفعل العكس.. دائما تفعل العكس، مئات الليالي التي مرت علينا وهي التي تقرب ساقها من جسدي، فانهض كالملدوغ، ثم أعود إلى سريرها فاسمع بكاءها بوضوح وأحيانا أرى الدمع يبرقُ في سواد عينيها، وبعد ذلك لا تمد يدها ولا تقرب جسدها إلا بعد مرور ساعات طويلة من الليل ومع ذلك في غمرة النوم وعمقه حينما يحدث أن تلامسني، أفزّ مرعوبا من كابوس الأسوار المتناسلة واترك السرير، مشهد لا يتغير قط، بل يزداد رسوخا، وفي اللحظات التي أجدني مرغما على النوم إلى جانبها، ينبثق جدار حجري.. يعلو.. يتصاعد.. حتى يلامس وجه السماء، كنت أفاجأ بهذا المشهد.. لم أتعوَّد عليه، كان يبدأ عندما أقف

جنب السرير، انظر إلى وجه زوجتي تحت بقعة الضوء الأحمر، أمد جسدي بجانبها وفي المسافة التي تكفي لنوم ابنتنا ينبثق الجدار حتى يلامس السماء وحينذاك اخترق ببصري حجر السور فأرى قبضتيّ كفيها الململومتين بقوة وهما تضربان الحجر لكي تفتح ثغرة ترى من خلالها ما يحدث في الجانب الآخر، كنت اسمع من الناس على قلة اختلاطي بهم، أن حالات كهذه التي أفسدت حياتي يمكن معالجتها، لكن لم أكن اصدق ذلك، فتتلاشى رغبتي بالشفاء، ولم أحاول ذلك، مطلقاً، حتى من اجل ابنتي البريئة الجميلة التي لا تشبه أمها إلاّ بصوتها وحزن عينيها ووجهها المستدير وشعرها الأسود اللامع وهزال جسدها!! ابنتي التي أحبها كثيرا لم أجد فيها سببا لتجاوز محنتي مع الأسوار، لكن حينما كانت أمها تغيب عن البيت.. كنت اشعر بالغربة التي لم تستطع ابنتي القضاء عليها أو الحد من ثقلها ومرارتها، وعندما تحضر أمها، فإن كل شيء يتحول إلى جحيم، حتى إنني أتمنى غربتي المريرة في غيابها، ولهذا كله قررت أن أتخلص منها وقبل ذلك فكرت أن أفرّ بابنتي بعيدا عنها وقمت بهذا فعلا، إذ رافقتني ابنتي من دون بكاء، ذهبنا إلى أحد الفنادق الكبيرة في مدينة تقع بأقصى البلاد، لكنني بعد ليلتين فقط أحسست أنني أسكن في قعر الجحيم، كنت أشتاق إليها بعنف، بمحبة مفرطة، بشوق لا يوصف وكنت أتجاهل هذا الشوق العارم وأذكِّر نفسي بالعذاب الذي يجتاحني بوجودها ومع ذلك لا أتذكر ألمي واحتقان خلايا جسدي، وأُتفِّه الجدران، والمشهد الليلي المريع الذي يتكرر مرارا، الشيء الوحيد الذي يتوهج

بذاكرتي هو أنني بحاجة إليها، وهكذا عدت بابنتي إلى البيت، فوجدتها جالسة عند عتبة البيت بعينين مذهولتين ووجه شاحب وجسد هش هزيل ممتع وما أن صرنا على مقربة منها حتى قفزت ورقصت في باحة البيت كالأطفال.. بريئة.. مسالمة حد الخوف، لم تسأل أين كنا، لماذا تأخرنا، ليلتان وثلاثة نهارات، كانت فرحتها بعودتنا عارمة، فأنستها كل شيء، ومثل هذا الأمر يتكرر في جميع الهروبات التي قمت بها سواءً بمفردي أو مع ابنتي، كانت تفرح حينما أعود لدرجة أنني كنت أرى الدموع تتقافز في عينيها، وفي الليل، في ساعاته الأولى، تتلاشى نوبات الشوق، شوقي إليها، ومع الدقائق الثقيلة التي تسحق جسدي وأنا أتمدد إلى جانبها فوق السرير، يبدأ المشهد اليومي الدائم، ينبثق الجدار، فأمد يدي وأمسح اللعاب الذي بدأ يتدفق من نقطة ما في جبيني، ويسيل إلى حنكي عابرا أنفي وشفتي، تتحجر روحي ويبدأ كل شيء مثلما يحدث في كل ليلة، فأشعر إنني ملزم بإنقاذ نفسي من هذا الخراب الذي دمر إنسانيتي ودمر وجودي بالكامل، لا أحد يعرف بهذا السر سابقا، فقط صديقي الذي بصق في وجهي، وانتم الذين تسمعونني الآن، حتى ابنتي لا تعلم بذلك، صبرت طويلا، لكنني لم استطع، يجب أن افعل شيئا، لم اصدق أنّ أحدا قادرا على مساعدتي، لا أخ ولا صديق ولا طبيب ولا ولي صالح، كان اليأس هو الشيء الوحيد الذي يقف أمام عيني، هو الشيء الوحيد الذي يعلن بجدارة حضوره إلى جانبي، كنت أخشى أن أتحدث بما قلته لكم الآن، أخشى أن تصفوني بالجنون، انتم أو غيركم، ولذلك أتيت على نفسي،

صبرت، حتى وصلت بصبري إلى آخر المطاف، عليَّ أن اهدم الجدران، خصوصا بعد أنْ عرفت أنّ الكابوس الأول لم يكن هو الشيء الوحيد الذي كرَّس محنتي مع زوجتي، لقد بدأ كابوس جديد في مشهد جديد في ليال تتوالد بانتظام مخيف، جدار واطئ هش غير سميك، يعلو ويصبح سميكا، يقوى، تتفرع منه جدران كثيرة، وعنها جدران أخرى كثيرة وتخرج من جوانبها اذرع مثل رؤوس الرماح لها مخالب وحوش جائعة، آلاف الأسوار الشاهقة والأذرع المتوحشة تلتف حول جسدي حتى الموت.. تفصلني عن زوجتي، عن أبي وأمي، عن أخوتي، عن ابنتي، عن أصدقائي على قلّتهم، عن السماء البعيدة، عن الحياة برمتها......... والآن ماذا عليَّ أن افعل، بحثت عن حلول كثيرة، دخت، تصدّعَ رأسي بجنون سيصيبني حتما إذا لم انتبه لما يجري، الحل الوحيد الذي يخلصني هو أن أنهي حياة زوجتي واترك سريرها إلى الأبد، لكن ابنتي طفرت أمام عيني، ومع ذلك أصبحت مصرا على هدفي هذا، أزحت ابنتي عن طريقي، فوقفت، هي، زوجتي أمامي بجسدها الهزيل وروحها الذابلة، وعينيها اللتين ما رأيت مثل حزنهما وصبرهما الجميل في حياتي، عينان واسعتان مغمضتان إلى النصف، فيهما حزن أثير يجعلك تلامس روحها الرقيقة الهادئة (كل هذا أراه وهي نائمة)، فأفكر بحل اقل عنفا، سأنفصل عنها، وحين أخبرتها بذلك، لم تسال لماذا، لم تتوسل، لم تفكر بمصيرها، لم تقل أنّ ثمّة طفلة ستضيع إذا ما حدث الانفصال، إنها على الأغلب عرفت الجحيم الذي يطوق روحي وجسدي، ولذلك ساعدتني، ساعدتني كثيرا من دون أن تصرّح لي

بذلك، إنها لا تريد أن اشعر بالمهانة، إنها لا تقبل أن تشعرني بفضلها عليّ، إنها ترغب بصدق حقيقتي نابع منى أعماقها أن تخلّصني من أسوار الجحيم التي تستدير وتشهق حولي، ولما يئست من ذلك، فلم تعارض، كل ما اطلبه منها تنفذه حتى لو كان يعرضها لخطر التشرد أو الموت، إنها تقول نعم.. نعم حقيقية.. صادقة، قالت لي، افعل ما تراه مناسبا لك، لا تفكر بي أنا، فكّرْ بنفسك وبالبنت، إذا كان الانفصال حلا فأنا موافقة، في صباح اليوم التالي كان البيت خاليا منها.. من أنفاسها.. من عذوبتها.. من هدوئها وسكونها.. من جسدها الهزيل الناصع.. من رنين ضحكتها الباكية.. من عينيها الواسعتين الحزينتين، حتى ابنتي لم تسال عن أمها، إنها لا تعرف شيئا مما يحدث بيننا، غابت زوجتي عن البيت أربع ليال فاشتعل البيت من جديد.. احترق مرة أخرى.. غربة، وشوق جارف، خوف، جحيم، نار يتلوى فوقها جسدي وروحي، هرعتُ إلى الهاتف، طلبتها بأصابع كف مرتجفة جاءني صوتها.. بعيدا.. خفيضا.. مخذولا، طوال أيام الغياب وهي تقف قرب الهاتف، قلت لها أنا أحتاجك في البيت، كانت صامتة في الطرف الآخر، لم ترفض، لم تشعر بالإهانة، لم تسأل لماذا ذهبت إلى أهلها ولماذا عليها أن تعود، أعادت السماعة على الهاتف وبعد ساعة كانت تقف في باحة البيت، امتلأ البيت بعطرها، بأنفاسها اللاهثة، بحزنها الذي يتدفق من عينيها، الآن يتوجب عليَّ أنْ أقوم بمهمتي من دون خوف أو تردّد، مسحتُ بكفي سيل اللعاب المنساب من جبيني إلى حنكي، إنّ خطتي دقيقة، سهلة التنفيذ، تؤدي هدفها حتما، سنوات

طويلة وأنا احفظ تفاصيل التنفيذ، وأضع الخطوات البديلة.. المناسبة.. أنفِّذ خطواتها مثل الممثلين في الأفلام المرعبة، أو مثل الخطط العسكرية، أتدرَّب، هي نائمة وأنا أتمرّس على كيفية القضاء عليها، والآن أنا وهي في غرفة النوم، غرفة واحدة، سعتها مناسبة لكلينا، نمدُّ جسديْنا فوق سرير واسع، إنه أشبه بمملكة شاسعة لكنها مزروعة بالدماء، ضوء احمر، حزمة دم تسقط على وجهها مباشرة، فيبدو ذلك الوجه مضرّجا بالخوف.. مفزوعا.. يائسا، ومع ذلك فهو لا يستغيث، أبدا، ها نحن في أواخر الليل، في ساعاته الثقيلة المليئة بالحزن والندم والخوف من الأسوار المتناسلة كالجرذان، أنهض واترك السرير، خطواتي قصيرة واثقة من غير صوت أو أنفاس، الخطة تتطلب الصمت، الغدر بأسوأ درجاته، ابنتي نائمة في مكان ما من البيت، وسيل البصاق يزداد تدفقا من جبيني، زوجتي نائمة، مطمئنة، اذهب إلى مطبخ البيت، خطوات قليلة وأصل، ادخل المطبخ، أسدُّ جميع الفتحات والنوافذ، وأُصبح في صندوق حجري مغلق تماما، أمدّ ذراعي إلى الطبّاخ، أطوّق عتلة تدفق الغاز بأصابع مرتجفة، أدير العتلة الدائرية إلى جهة اليمين، يتدفق الغاز مثل نافورة ماء، وفي لحظات أكاد اختنق، فأهرب، اترك المطبخ وأغلق الباب خلفي، أنا الآن في غرفة النوم، انظر إلى وجه زوجتي المدمّى بالضوء الأحمر، والغاز يتدفق، يملأ جوف المطبخ، البصاق أيضا يستمر بالتدفق من حفرة ما في جبيني، سأطلب منها أن تستيقظ، ستراني نائما إلى جانبها، سوف أتثاءب وأشكو من صداع الرأس، سأطلب منها أن تذهبَ إلى المطبخ، سأطلب منها أن تصنع لي

كوبا من الشاي الثقيل، لن تمانع، أنا اعرفها، إنها زوجتي، سوف تشعل عود الثقاب لتشعل عين الطباخ، وعند ذاك سينتهي كل شيء، سيشتعل الجحيم، سينفجر المطبخ بقوة الغاز المحصور، الزجاج سوف يتشظّى، هي ستحترق، ستتهشم، ستموت، أتذكّرُ ابنتي، أتخاذل، فانسي ابنتي، استمر بتنفيذ خطتي، البصاق يكسو وجهي، أمد يدي إلى جسدها، هذه المرة الأولى التي أبدأ فيها أنا، المرة الأولى التي أمدّ فيها يدي إلى جسد زوجتي، لم تتحرك.. لم تستجبْ ليدي، هذه المرة الأولى التي لم تستجب فيها إليّ، كان جسدها باردا.. باردا مثل الثلج، وكانت ابنتي تجلس عند رأسها وتبكي.. الأسوار تنمو، تبدأ ولادتها فوق السرير، تتفرع، تتعالى باتجاه السماء، تخرج من الجدران أذرع كثيرة.. أذرع بأكف وأصابع متوحشة، مخالبها طويلة حادة تنغرس في لحم جسدي.. تحملني إلى المطبخ.. يشتعل عود الثقاب، فيأتي الخلاص دفعة واحدة، الخلاص الذي خططتُ له منذ أعوام طويلة، الخلاص الذي وضع حدا للخراب في حياتي.

❋استدراك

لم أسمع من أبي شيئا عن الأسوار، أنا ابنته الوحيدة، لم يقل لي عما كان يدور بينه وبين أمي، عشت معهما طويلًا، لكنني مثلكم تماما، لم اعرف ما حدث إلاّ بعد أن عرفتم أنتم، قالوا إنّ أمي هي التي دبرت موت أبي بغاز المطبخ، لكنها كانت ميتة قبله، كل ما اعرفه أو أتذكَّره الآن، أنَّ أبي كان رجلا رائعا محبوبا ومحبا للحياة، وما حدث لم اسمع به طوال حياتي التي قضيتها معهما تحت سقف واحد.

خطايا الآباء

غمامة حزن دهمت الأم، هبط الابن برأسه على يدها، قبّل ظاهر كفّها، لاحظ الصمت والسكون الذي يخيم على الحديقة، تراءت له الصور الثلاث في غرفة الجلوس، جميعهم قتلتهم الحروب الثلاث بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، قال:

ـ أمي.. ثلاث حروب مدمّرة تكرّرت فوق أرضنا في زمن وجيز، بينما هناك أراض لم تمسّها الحروب عشرات أو مئات السنين، ماذا نسمّي ذلك، هل هي لعنة تستهدفنا أم ماذا؟

ـ بل هي من أخطاء الراحلين.

ـ وأرضنا لماذا تُصاب بشتى الأمراض؟

ـ قلَّما توجد أرض مريضة بطبيعتها، الإنسان هو الذي يصيب أرضه بالأمراض.

ـ وهل آباؤنا مرضى؟

ـ سمحوا لأنفسهم أن يكونوا كذلك، لم يسعوا إلى العلاج الصحيح، وانتقلت أمراضهم إلى أرضهم، ثم استعانوا بمن ضاعفها وأضعفهم.

وأضافت الأم بعد تركيز وشعور بالألم، كأنها تلفظ آخر ما في جعبتها من كلام:

ـ في أزمنة مضتْ لم تكن أرضنا مريضة، كانت نظيفة خالية من الخبث، لكن الأخطاء التي ارتكبها الآباء بحق أنفسهم وبحق القادمين، جعلت الأرض في غيظٍ وحِلٍّ منهم، لا عيب في أن نخطئ، العيب كله في الإصرار على الخطأ والإبقاء

عليه من دون تصحيح، إنهم لم يستفيدوا كما يجب من الأخطاء التي ارتكبها السابقون كما يحدث معنا الآن، ليس هذا فحسب، بل أضافوا من عندهم قائمة جديدة لتلك الأخطاء حينما شرعوا يتقاتلون فيما بينهم، ويقرّبون الأجانب من أرضهم مع أن هؤلاء لم يتقنوا الكلام معها ولم يحسنوا التعامل مع الخصوصية التي تميزها عن سواها، فلكل أرض خصوصية ولغة ومشاعر وأسرار لا يفهمها إلا أهلها، ومع تقادم الأزمنة، بدأتْ الأرض تُظهر غيظها من أهلها بالتدريج، فشرعت بمعاقبتهم بالأقل ضرراً لكي يتنبّهوا ويصححوا أخطاءهم، في البداية قطعت عنهم العطر والأريج النقي، فلم تعد تمنحهم أنواع الورود والزهور حتى في فصل الربيع، ذبل ورد الجوري بألوانه الخلابة، وتبخّرت نفحات القداح، واختفى الرازقي، وجفَّتْ شقائق النعمان، خلت الحدائق الحمراء منها والبساتين، فصارت حياتهم بلا عطر أصيل، حاولوا تعويضه بالمستورَد، لكنهم فشلوا، وعندما لم يتعظوا، تصاعدت العقوبة أكثر فمنعتْ عنهم الماء العذب، ومنحتْ المياه الآسنة سطوة عليهم، وضاعفت من الملوحة حتى في الأنهار التي امتازت بعذوبتها، كل هذه الإشارات وأخطاء الآباء باقية على حالها، لم يصححوا شيئا منها، بل أحيانا تنمو.. تكبر وتزداد في حالة غريبة من الإهمال والإيغال في الخطأ، وراحت الأخطاء نفسها تتكرر وتنتقل من جيل إلى جيل، بل أخذت تتكاثر بلا رادع، فبادرت الأرض إلى عقوبة جديدة أشدّ، ضربتْ الشجرة الأم لهم، فأصابت النخلة (عمّتهم) بالجفاف وسلَّطتْ عليها حشرة (الدوباس) التي أحالتها إلى

جذوع يابسة لا روح فيها، كل هذا حدث معهم، وكل هذه العقوبات حلَّتْ بهم، لكنهم ويا للغرابة لم يأبهوا بذلك، ولم يتخذوا خطوة ولو صغيرة كي يحيدوا عن لامبالاتهم ويثبتوا للأرض بأنهم أهل للتصحيح، فذهبتْ إلى أسلوب جديد معهم، قطعت عنهم الفواكه بأنواعها أو ما بات يسمّيها الفقراء بالأطعمة الكمالية، ولم يعنِهم الأمر، فقد استعانوا على هذا النقص بفواكه الأراضي الغريبة عنهم لكنّ حسرة الفاكهة الأصيلة، فاكهة أرضهم، ظلّت تعتصر قلوبهم وأرواحهم، لم ترشدهم عقوبات الأرض نحو الطريق السديد، فهي في واد وهم في واد آخر، بعد هذه السلسلة المتدرجة من العقوبات، رأفت الأرض بأبنائها، منحتهم إشارات على أهمية تصحيح الأخطاء، ووأد الحروب وهي في مهدها، أعطتهم فرصة جديدة، ولكن في حالة بقاء الحال على ما هو عليه، هناك مَنْ يؤكد من المتمرسين العارفين بأسرار هذه الأرض قائلين ربما تذهب مضطرّةً إلى الأكثر والأشدّ تأثيرا وربما تدميرا وفناءً لأبنائها غير العابئين بتنبيهاتها لهم، فتقطع عنهم الذهب الأسود بعد أن تجفِّفَ ضرعها بنفسها عنوة، وبهذا وسواه مما هو أخطر وأكثر ضررا، ستعاقب الأرض أهلها الذين لم يفلحوا في التعامل مع بعضهم بعضا، ومعها، ولم يحسنوا مخاطبتها بلغتها، بل استعانوا عليها بمن لا يحترمها، ولكن – كما يقول العارفون- فرصتهم لا تزال قائمة إذا أحسنوا التعامل مع الأخطاء إرثا وحاضراً.

نهض الابن من مكانه بعد أن استوعب الدرس، كان قد أنهى قراءة المخطوطة التي تركها له الأب، بدا مثقلا ومطوّقا بأحداث بعيدة مضت عليها سنوات طويلة، حمل المخطوطة بين يديه، لاحظ قطرات دمعه التي ذرفها على الورق، حوصِرتْ المخطوطة بالرطوبة مرة أخرى ولكن هذه المرة بالألم والدمع والأسف على أناس طيّبين لا يستحقون كل هذا العذاب، لا يتذكر أنه بكى وهو يستطلع خفايا أوراق الراحلين، دخل عالمهم وصار واحدا منهم، أحس بآلامهم وعاش لحظات الرعب التي فرضت نفسها عليهم بدلا من لحظات الهدوء والأمان، أيةُ فجائع تلك التي عانى منها الراحلون، وكيف يمكن للقادمين التخلّص منها، كي يتجنبوا ذلك الألم وتلك العذابات المريرة؟، ضمّ المخطوطة إلى صدره، كأنها أغلى ما حصل عليه في هذه الدنيا، لقد أصرَّ بينه وبين نفسه على تعلّم الدرس جيدا واستيعابه، وآمن أن هذه المخطوطة تقدِّم أحداثا وفجائعَ لا مناص من تجنّبها، وقف بكامل جسده في وسط الحديقة، دقّق في تربتها، لا يزال يشوبها بعض الاحمرار، لكنه عرف الآن كيف يعالج هذه الأرض التي باتت تفهمه ويفهمها، ويعرف كيف يخاطبها باللغة المشتركة بينهما، لقد أتقن لغة الأرض التي نبت وترعرع فيها، مدَّ يده إلى أمه، سحبها برفق إليه، قبَّل يدها، دخلا معا إلى البيت، ثم إلى غرفة الجلوس، ضاعف من الإنارة داخل الغرفة، أضاء جميع المصابيح وخاصة تلك التي تتوجه أشعتها نحو الصور الثلاث الموجودة في أعلى الجدار، وقف قبالة الصور، إلى جانبه أمه، نظر إلى أبيه يتوسط الصورتين الأخريين، تمتم

بكلمات غير مسموعة، ثم بدأ صوته يرتفع، كأنه يخاطب إنساناً حيّاً، قال بنبرة واثقة:

ـ أبي وصلت الأمانة، طالعنا ما تركتموه لنا، لقد أدركنا الأخطاء وسوف نتعلم جميعاً ألا نقع فيها مرة أخرى، كذلك تعلمنا الكثير من إرثكم العظيم الذي تركتموه لنا في الجانب الإنساني وسواه.

حان وقت العصر، خرج مجددا إلى الحديقة، خيوط الشمس تندلق عليها حانية رقيقة، نظر إلى الأرض، لاحظ أن الاحمرار قد بدأ يخفَّ ويقلّ فيها، أشجار الرمان تتعالى وتنثر أغصانها في الأرجاء، النخلات تسرّح جدائلها في غنج، عطر القدّاح يملأ رئتيه، حديقة غنّاء تتصدر بيته، وأرضه تتعافى بالتدريج، أمه أطلّت عليه من داخل البيت، لاحظ ابنها خصلات شعرها الأشيب المصفَّف، توجّهتْ إلى الحديقة في قامة فارعة مجبولة بالبهاء، تحملُ بين يديها صينية فيها كأسين من عصير الرمان، وصلت إلى ابنها، جلست قبالته، تفصل بينهما مائدة مصنوعة من جرِّيد النخيل، وضعت الصينية على المائدة حيث تستقر المخطوطة التي أنهى الابن قراءتها قبل قليل، سألته أمه:

ـ هل استمتعت بها، أم استفدت منها؟

ـ استفدت واستمتعت.

ـ وماذا ستفعل بها؟

ـ سأحافظ عليها كما طلب الراحلون، وسوف أحثّ الشباب على قراءتها، سأقصّ أحداثها على الناس، سأحاول أن يستفيد منها أكبر عدد من أهلنا.

ـ وكيف سنستفيد من الأخطاء؟

ـ نتجنبها أو نصححها، وفي الحالتين ستكون النتائج أفضل.

نظرت الأم في عيون ابنها، إنه يذكّرها بأبيه، تطلعت بفرح في وجهه، لقد تجاوز سقف العشرين وها هو يدخل الحياة بذكاء وتصميم رائعيْن، هكذا قالت لنفسها وهي تشعر بأنها ربما كانت أكثر تشاؤما من أي وقت مضى، لكنّ ابنها بروحه المتفائلة منحها ثقة جديدة، قدمتْ له كأس العصير ثم أخبرته أن أباه كان يحب عصير الرمان كثيرا، وفي اللقاء الأول الذي جمع بينهما قدّمت له هذا الكأس نفسه، فاستطابه، وظل يطلبه منها حتى رحيله، شرب الابن رشفة من عصير الرمان، بدا مذاقه لذيذا، ومع ذلك لا تريد الأحزان أن تفارق لحظات الأمل، فشرعت رغبة قديمة جديدة تشتعل في أعماقه، إذ حتى هذه اللحظة لا يعرف بالضبط كيف خطفت الحرب أباه، إنه يعرف الخطوط العريضة لهذا الرحيل بذاكرة طفل مشوشة، ويعرف أن الصواريخ قصفت (أباه وأخته الدكتورة منى) عندما كانا معا في العاصمة حيث كانت منى تواصل دراستها في كلية الطب المرحلة الأولى، وحصلت على غرفة في القسم الداخلي للطالبات، وفي نهاية كل أسبوع تغادر الكلية، تزور أباها في القاعدة الجوية ويأتيان معا إلى مدينتهما المجاورة للعاصمة، كان الابن لا يعرف تفاصيل أكثر عن ذلك الرحيل الفاجع، سأل أمه:

ـ كيف مات أبي وأختي؟

من جديد تكاثفت في وجه الأم غيمة من الحزن، رفعت عينيها صوب أعالي الأشجار، شخَصَ بصرها بعيدا، بدت كأنها تكافح من أجل طرد ذلك الألم المستعرّ في رأسها حتى الآن، قالت لولدها:

ـ قبل ظهيرة ذلك اليوم البعيد، فوجئتُ بسيارة أجرة صغيرة توقّفتْ عند باب بيتنا، كانت تحمل فوق ظهرها جنازتين، توقّعتُ أنهما لأحد الجيران، أو أن السيارة توقّفت عند بابنا لحاجة ما تتزوّد بها وتمضي في طريقها إلى المقبرة، ولكن عندما نزل منها أحد الضباط، انكمش قلبي واهتزَّ كياني كله، سلّم الضابط بنبرة قانطة مترددة ثم طلب قليلا من الماء، دوار مفاجئ استباح رأسي، بدأتُ أبكي بصوت واطئ مخافة أن أصيبك بالفزع، كنتَ لا تزال في السابعة من عمرك آنذاك، تجمَّع أهالي الحي والأقارب وبعض الأصدقاء، أخبرني الضابط بالحدث الذي هدّم آخر ركيزة أستند عليها في حياتي، وكما أخبرتك سابقا، أن سلسلة الحروب كأنها فُصِّلتْ على مقاسي من أجل تحطيمي شخصيا وتدمير حياتي، في الحرب الأولى مات أخي، بعد عشر سنوات حلّتْ الحرب الثانية فخطفتْ مني زوجي الأول الذي ألهمني قيمة احترام الحياة والناس والذات، وبعد عشر سنوات أخرى حدثتْ الثالثة التي أغرقت في غدرها آخر قارب إنقاذ لي، ذهبنا بالجنازتين صوب المقبرة، دفنّا أباك وأختك متجاوريْن، وواريناهما الثرى وعدنا أدراجنا، أنت لم تكن معنا، تركتك أمانة عند الجيران، خشيتُ عليك من الصدمة في حينها، بقيَتْ تفاصيل موت أبيك

وأختك منى غامضة، حتى أنا لم أعرف أي شيء عنها، باءت محاولاتي لمعرفتها بالفشل، أرسلتُ بعض الأقارب إلى قاعدة أبيك الجوية، كانت الأخبار التي يعودون بها تزيد الغموض غموضا، والإرباك إرباكاً، وتتركني في متاهة الظنون والألم، عند ذاك صمَّمتُ أن أذهب بنفسي لأكتشف الحقيقة، وبعد شهور من دفن أبيك وأختك، سافرتُ بنفسي إلى القاعدة الجوية لإتمام قضايا إدارية تخصّ أباك، في وقتها عرفت معظم التفاصيل من ضابط صديق لأبيك في القاعدة الجوية نفسها حصل عليها من عيون خاصة كانت تُزرَع في أرجاء القاعدة ومرافقها لمعرفة ما يحدث فيها.

واصلت الأم كلامها:

بدأ الضابط بتوضيح التفاصيل الدقيقة التي أخذت تتضح لي في وقتها، قال:

ـ استمرت الصواريخ تتساقط على العاصمة كالمطر، تم تدمير الجسور كلها إلا ما ندر، أحيلتْ البنايات الرسمية الحساسة، وحتى المدنية منها إلى ركام، دوائر الاتصالات وأبراجها دُمِّرتْ بالكامل، فصلوا بين شطريّ العاصمة، عزلوا جانبيها عن بعضهما، فرّت منى من كليّة الطب مع إحدى زميلاتها، توجَّهتْ إلى قاعدة أبيها الجوية التي زارتها في السابق مرارا، كانت معها زميلتها، تمكّنتا من عبور النهر العريض في قارب صغير مع أناس كثر، القذائف والشظايا تتساقط فوق رؤوس العابرين الفارين من الموت، ثمة حيوانات نافقة ويُقال بعض الجثث البشرية كانت تطفو فوق سطح النهر كما تناقل الناس هذه الحكايات لاحقا، وبعد

كفاح مستميت وصلت منى إلى القاعدة الجوية لأبيها، رفضت الذهاب مع زميلتها إلى بيتهم، كان القصف في أشد حالاته على القاعدة الجوية كونها موقع عسكري، وكان جميع الضباط يتكدسون في المقرات البديلة، دخلت منى للقاعدة الجوية، لم تعثر على أبيها في مكانه المعتاد الذي تعرفه، ولم يكن هناك من يدلّها عليه بعد تغيير مكانه وذهابه إلى المقر البديل، ثم ما لبثت أن وجدت نفسها في منطقة قتل خطيرة، يحيط بها الخراب والقصف والموت من كل جانب، وفي دقائق أصبحت القاعدة هدفا للصواريخ والقذائف المتساقطة من الأعالي كالمطر، أبوها لم يكن يعرف بوضع ابنته، فهو مطمئن بأنها في بناية كلية الطب وكان قد قرر الذهاب إليها بعد الظهيرة، لم يدرِ أنها محاصرة بمخالب الوحوش الهابطة من الفضاء، حتى أنا كصديق له لم أعرف بذلك إلا بعد فوات الأوان عندما أخبرني بذلك شهود عيان، كان الجميع في القاعدة مشغولين بأنفسهم، وفي تلك اللحظات المدججة بالموت، رنّ هاتف المقر البديل، أحدهم سأل عن أبيها ثم أخبره أن ابنته داخل القاعدة تبحث عنه وأنها محاصرة بالقصف الشديد، هرع بلا وعي خارجا من المقر المحصّن، ركض في العراء الواسع، لا شيء يحميه من شظايا الصواريخ المجنونة، بحث عن ابنته هنا وهناك، كان يركض صارخا بأعلى صوته باسمها، بدأ يفتش عنها في ملاجئ الطائرات التي أحيل معظمها إلى ركام محترق، فتش البنايات الفنية والإدارية واحدة تلو أخرى، كانت الأرض مغبرة، والفضاء القريب يغزوه لهب أسود، والقذائف والصواريخ لا تكف عن نبش مدارج

الطائرات وضرب الملاجئ والبنايات بوحشية، وبعد بحث يائس مرير، رأى الأب ابنته تتكوَّر بجسدها النحيف تحت مقعد من الخشب ينتصب فوق أحد الأرصفة، ركض إليها، لكنها ظلّت مختبئة في مكانها حتى بعد أن رأت أباها، سحبها بلطف من كفها، ضمها إلى صدره، أرض القاعدة ترتجّ تحت جسديهما، حملها على ظهره وركض بأقصى ما يستطيع، اتجّه بها عائدا إلى المقر البديل المحصَّن، وقبل أن يصل باب المقر بمسافة، دوّى انفجار مهول فوق احد ملاجئ الطائرات القريبة، وانشطرت منه مئات الشظايا كأنها صحون فضائية هابطة من الأعالي نحو الأرض يرافقها عصف وأزيز مفزع، إحداها مرقت بسرعة البرق، بترت ساقيّ الأب، هوى على وجههِ نحو الأرض هو وابنته، بقيت البنت وحدها قرب أبيها، الدماء تتدفق مثل رشاش ماء قوي نحو وجهها وجسدها، لا تعرف ماذا تفعل، وقفت بكامل قامتها مرعوبة تتلفت في كل الجهات علّ مسعفا يلوح لها في هذه الآماد الخالية إلا من أشباح القتل، وفعلا جاء المسعف، طارتْ نحوها شظية حادة ساخنة مدببة نبتت في رأسها، سقطت فوق أبيها، بعد ساعة من موتهما، هدأ القصف، تذكَّرْنا المقدَّم جميل، خرجنا من المقر باحثين عنه، شاهدنا على مبعدة منّا، جسدين متشابكين معا، هرعنا إليهما، رأينا الأب مبتور الساقين، بدا كأنه يضم ابنته بقوة إلى صدره في لوحة لن ننسى مأساتها ما حيينا.

أورام ليست حميدة

لم يكن في الزقاق سوى الليل والأبواب المغلقة، فتعرَّتْ في بحيرة من الظلام ونفضتْ ذنوبها ووقفت إزاء الكوة المشرعة على الزقاق بجسد يخلو من الشوائب كما خلقه الله، مدَّتْ يدها إلى الكوة وانزلقت فيها إلى داخل الحجرة وفي جوفها الضيق وجدت جسدا محروقا يتلظّى بأخطاء زمن بشري جاحد دلقت عليه من ماء روحها فأطفأت أنينه المتواتر... سكت الأنين فانفتحت الأبواب المتوثبة دفعة واحدة وخرج الرجال والنساء واستيقظ الأطفال على غير عادتهم فغصَّ الزقاق بأجسادهم واتسعت الأسماع كأفواه جائعة شرهة وتلقَّفتْ أقاويل سيئة سرتْ بين الناس كنار في هشيم، قالوا إنها الآن معه في حجرة واحدة وهذا يعني الكثير لكن التساؤلات الملحّة التي شغلت الناس كانت تبحث عن سر السكوت المفاجئ للأنين اليومي وعن ذلك الضوء الذي تغصّ به الحجرة فيندلق من الكوّة إلى الخارج ليحيل الظلام المكدس في الزقاق إلى حيز يضج بأضواء فضية تتناثر هنا وهناك... قال أحدهم ربما مات حمّودي فانقطع الأنين إلى الأبد لكن رجلا منهم لم يعد يتحمل تفسيرات الآخرين فجازف بحياته كما قال عنه الناس وتقدم إلى الكوة ونظر من خلالها إلى بطن الحجرة فتجمد في مكانه والتصق بالجدار وارتعش جسمه بشدة ثم عاد إليهم بأقوال تأرجحت بين الشك واليقين وتاهت بين الحقيقة والأوهام.. قال لهم في بادئ الأمر لم أرَ شيئاً ظلام في ظلام وهوة سحيقة ليس لها

قرار أصابني الدوار، دخت وأنا أصغي لذلك الأنين المبهم الذي ما لبث أن تحول إلى صوت مثقل بنبرة الشكوى والندم والعتب المرّ ثم لطمني ضوء مفاجئ، تمالكتُ نفسي وأطلقت بصري في جوف الغرفة، لا شيء سوى الضوء الذي كسا الجدران وهو ينبثق من الأرض كنافورة قوية يتصاعد نثارها الفضي ليرتطم بالسقف ثم يرتدّ إلى الأرض ويلفّ على الجدران الكلسية باحثا عن منفذ للخلاص فأحسست بالضوء يدفعني إلى الخلف ويسوطُ وجهي وخيوط النور تنثّ على ارض الزقاق، تفرّستُ بمنبع النور فرأيت حمّودي مطروحا على الأرض كتلةً مشعةً وقبل أن انسحب ومن فرط دهشتي وذهولي أطلقتُ نظرةً أخيرة فرأيت أو هكذا تراءى لي جسد امرأة يلتصق بجسد حمّودي بألفة وسكون مهيب وفي غمرة الذهول الذي طغى على الوجوه الموزعة ما بين السماء والكوة الساطعة انفتح باب البيت وخرج أبو حمّودي إلى الناس فتراجعت الأجساد إلى الخلف، وقف على عتبة الباب وقال لهم بعد الآن ستنام عيونكم قريرة مرتاحة لا ينقصها شيء وأبواب بيوتكم ستبقى هادئة حتى الصباح والألسن ستكف عن النهش بأكتاف الآخرين ورقاب الرؤوس ستهدأ وراء الستائر، لاشيء يدعوها للحركة والامتداد والتحري، اليوم وصلتم إلى غايتكم وانتهى كل شيء.

استمع الناس إلى الرجل ببلاهة يخالطها شعور بالذنب سيظل شاخصا في عيونهم إلى أمد بعيد ... لكن ما فائدة ذلك، لقد مات حمّودي أو هكذا سينتهي الأمر وكل منهم يشعر أن له يدا في هذه الميتة الغامضة... حتى أبوه قال لهم شاركنا جميعا في

قتله وأنا كنت أكثركم إيغالا في ذلك وبكى ثم دخل بيته وأغلق الباب من دون أن ينتبه للجلبة التي حدثت بين الناس ولم يسمع دبيب الأصوات التي تناقلتها الألسن وانتشرت بين الأفواه المفتوحة على وسعها، شاع الخبر سريعا وسرى بينهم من فم إلى آخر ومن أذن إلى أخرى وفي غضون دقائق كان الجميع يرددون بأن التهمة ثابتة على حمّودي ولا مجال لدحضها وربما سيموت الطفل في هذه الليلة ويلحقه طفل آخر في اليوم التالي وهكذا سنفقد جميع أطفالنا يجب أن نضع حدا لهذا المجنون الذي راح يعبث بأرواح أطفالنا متى ما شاء ذلك ومن بين حشد الناس خرجت بدرية تضوع منها رائحة الصدق والورع وقفت على عتبة الباب وقالت لهم من منكم رأى حمّودي وهو يضرب الطفل، أي لسان يجرؤ على قول كهذا، حمّودي لم يضرب الطفل بل هو الذي نزل إليه وأخرجه من فوهة المجاري المفتوحة وسط الزقاق وأنقذه من الموت ولولاه لظل مطمورا إلى الأبد في مياه ثقيلة آسنة، لكنهم لم يصدقوا أو أهملوا أقولها وطالبوا بحجر حمّودي أو إبعاده عن الحي لأنه بات يشكل خطرا على أرواح أطفالهم كما قالوا، وإذ سمع أبوه بالأمر سارع إليهم وركع عند أقدامهم وتعهد لهم بأنه سيحجز ابنه في البيت وإنْ لمحوه مرة أخرى في أزقة الحي فلهم أنْ يسلموه لأقرب مستشفى للمجانين ومنذ ذلك العهد بدأت حياة جديدة لحمّودي يعيشها في حجرة ضيقة تنفتح في جدارها كوة تساوي مساحة الوجه وأجمل ما فيها إطلالتها على الزقاق مباشرة فكانت هي المنفذ الوحيد لحياة حمّودي التي ظلت مثار أحاديث الناس لمدة طويلة ومنذ الأيام

الأوَل لحجر حمّودي أخذت تنتشر حكايات غير مؤكدة عن لقاءات ليلية تتم بينه وبين بدرية عبر هذه الكوة الصغيرة أو داخل الحجرة لكن من أين كانت تدخل إليه لا احد يعرف ذلك في حين أكد آخرون بأن حمّودي اخذ يرمي المارة بالحجارة من خلال الكوة فأصاب عددا من الأطفال ومرة أخرى وقفت بدربة بوجه هذه الأكاذيب وراحت تؤكد أن ثمة أُناسا في هذا الحي تعيش في عقولهم رغبة بالانتقام من أي شيء فحتى هذه الكوة التي لا تتجاوز مساحة الوجه طالبوا بإغلاقها حيث جاء عدد من الرجال إلى أبي حمّودي واخبروه بأن ابنه بدا يؤذي الناس وعليه يجب غلق الكوة لكن الرجل قال لهم بلا تردد وبنبرة واضحة قوية لا توجد أحجار أو حصى في حجرة ولدي ثم إنني أُغلق عليه الباب ولا افتحه إلاّ حينما يعطش أو يجوع ومع ذلك فقد أصروا على طلب غريب لم يكن يتوقعه أبو حمّودي، قالوا له يجب أن تسلمنا مفتاح الحجرة ونحن نشرف على إطعامه، رفض الرجل هذا الطلب وقال لهم بالحرف الواحد قد أفرّط بحياة ابني وقد اترك مصيره بين أيديكم لكنني مستحيل أوافق على طلبكم هذا وأغلق الباب دونهم.

كان حمّودي يستمع للحوار بدقة وكان صوت أبيه يرنّ في سمعه، أطرق برهة، أغلق أذنيه وعصر رأسه بكفّيه واستغرق في تفكير عميق ودارت في رأسه أحداث كثيرة كأنها تحدث الآن ومرت أمام عينيه صور ملوثة بغبار شياطين سود تندلق من أفواهها نار تأتي على كل شيء يقع في طريقها، مد يده إلى قمة رأسه تحسس النتوء المنتفخ في أعلى قحفته، تذكر الحرب تذكرها كأنها بدأت الآن ودون وعي

منه شرعت سبابته تهرش بالنتوء المشرئب إلى الأعلى قبض عليه بأظافر يده وحاول أن يقتلعه لكنه أفلتَ من أصابعه وطاش في أرجاء جمجمته التي اهتاجت وثارت ثائرتها فألقتْ حمّودي في أزقة الحي وبدأت تطلق أصواتا غريبة متنافرة انصهرت كلها في بوتقة واحدة توحّدتْ فأطلقت صوتا مبحوحا مرتعشا يخترق ضباب الغبش صوب الرؤوس الغافية، صوت نادب تكاد تألفه الأسماع المسيّجة باللاّمبالاة... مع الفجر ينوح برنين مشبع بالآهات التي تنطلق إلى قلب فتاة نائمة يفور في قلبها غرام سنوات طويلة برجل بائس أنكرته ساقاه ورفضتا أوامره وظلتا تجوبان به الأزقة الآسنة وقتما يحلو لها ذلك، حتى دبَّ اليأس في خلايا مخه وأيقن أنّ هاتين الساقين لا يمكن أن ترحماه، طرق النواح أذني بدرية التي نهضت مع الطرقة الأولى، قفزت من فراشها وأخذت دموعها تهمي مع تصاعد الصوت الذي قطع عليها الالتذاذ بإغفاءة الصباح وبرودته المنعشة خطت إلى باب البيت وأطلت على حمّودي الذي هرع إليها وتلقّفَ منها فطور الصباح من دون أن ينبس بكلمة، مشت عيناها على أرجاء وجهه الضئيل المنطفئ، مسحت دموعها وقالت له (حمّودي لا تبقَ تندب مثل النسوان) وأغلقت الباب في وجهه، بكى بنشيج يشبه بكاء العجائز ولطم جبينه مثلما تفعل النساء في الفواتح وهربت به ساقاه إلى أزقة أخرى وهناك بدأ الأطفال يتجمهرون حوله ويزدادون كلما ارتفعت حرارة الشمس وبدأت أهازيج الأطفال اليومية ترتفع بصيحة واحدة متماسكة لا يشوبها صوت نشاز تغزو بيوت الحي فيعرف الناس أن حمّودي وجوقته شرعوا بلعبتهم

اليومية فعليهم أن يمنعوا أطفالهم من الالتحاق بهم غير أن احترازهم هذا لا يجدي فما تلبث دائرة الأجساد الصغيرة تتوسع وتلتف حول جسد حمّودي وهو يدور بهم دورانا سريعا تتخلله قفزات عالية متلاحقة فيبدو كما لو انه يحاول أن يمسك شيئا ما يتدلى من السماء وفجأة يتوقف ويتوقف معه كل شيء ليس ثمة صوت أو حركة، يقرفص بين أجساد الصغار الذين يتأهبون لأهزوجة جديدة لا يعرفون من أين يأتي بها هذا الرجل المعطوب وفي لحظة يشبُّ إلى الأعلى بجسمه رافسا الأرض ضاحكا مرددا مع جوقة الأطفال أهزوجته التي حفظها عن ظهر قلب، فتصدح حناجر الأطفال بأصوات عالية مستميتة ومن بينها يتميز صوت حمّودي عاليا قويا ضاجا بفجيعة رأس مصدوع بنتوء لا يهدأ للحظة من العبث في جمجمة تبحث لها عن دواء ناجع في صراخ مبحوح سيكون مصيره العطب هو الآخر تتخافت أصوات الأطفال صوتا بعد آخر وتتواصل الخطوات حتى تقترب الجوقة من بيت بدرية حيث يدبّ نشاط مفاجئ في الجسد الضامر فيرقص بعنفوان جديد ضاربا الأرض بقدميه، فتضج الأصوات مبحوحة باكية متقطعة تعلو وتنخفض وتجاهد بعناد شديد لتطرق رأس بدرية التي فتحت باب البيت وصفنت على الأجساد الصغيرة المتموجة في دوامة غبار كثيف يتصاعد من ارض رخوة مغطاة بتراب ناعم أيبسته الشمس فصارت تنبثق منه نافورات غبارية تضمخ الأجساد المتراقصة التي بدت لبدرية كحمائم بيض تحاول الطيران يقودها طير ضئيل لكنه متّقد يتقافز بحدة غير عابئ بالعيون التي انفتحت عليه من أبواب

البيوت وفي تلك اللحظات التي تضج بالأهازيج المدوية والأجساد الراقصة المنتشية يرين صمت ثقيل مباغت ويُخمِد الأصوات الناعمة وتسكن الأجساد مثل أعمدة قصيرة مركونة في ثنايا الأرض ويبقى حمّودي جسدا متقافزا رافسا الأرض لا يعرف السكون وصوتا ملتاعا يبحث عن قلوب صافية تمتص مرارة الصوت وآلام النتوء الذي لا يهدأ أبدا، كان الرجل الضخم يسرع إليهم والغضب يتطاير من عينيه الحمراوين حاملا في يديه هراوة ثقيلة راح يهش بها أجساد الصغار التي تبعثرت فوق ارض الزقاق وتباعدت عن بعضها فيما كانت بدرية في تلك اللحظات تحتضن رأس حمّودي داخل بيتها وتضمه إلى صدرها فيسكت حمّودي ويستحيل كله إلى ذاكرة كبيرة متوقدة تستعيد أيامه معها، شعر حمّودي بلذة الصمت ودفئه في حضن بدرية ولصق صدرها وانطفأ النواح وهجع كل شيء في داخله وانزوى النتوء إلى داخل رأسه صامتا مهزوما فيما كانت أنامل يدها تمسد شعره الأبيض وتبحث عن شيء طالما سمعت به من أهلها ومن الناس الجميع قالوا إنّ رأسه مصاب وهذا هو سبب الخبال الذي حلًّ به غير أنها لم تعثر على شيء كان جلد الرأس مستويا باردا وليس ثمة نتوء أو ورم، بكت بدرية دمدمت بينها وبين نفسها وتفوهت بكلمات لم يفهمها حموي مشت أصابعها الرقيقة فوق شعره الأشيب المبعثر وهبطت إلى جبينه المحزّز بأخاديد عميقة قالت له بصوت أم:

ـ لم تكن هكذا من قبل؟

كان الصمت مهيبا والهدوء يخيم على رأسه اللائّذ في دفء صدرها.

ـ حمّودي حبيبي.. تكلم معي.....

كانت كلماتها رقيقة ناصعة مرنة تدغدغ سمعة بأنامل طفل لدرجة أنها أيقظته من إغفاءة لم يذق مثلها منذ زمن بعيد:

ـ حمّودي لا تصمت

ـ ماذا..............؟

صحا حمّودي وصحا معه كل شيء وانتفض جسده وعوى في رأسه نباح ليالي الحرب:

ـ حمّودي لا تعذبني.

ـ أنا لم أعذب أحداً.

هرب حمّودي من حضنها وتملّص من يدها وترك المكان مثل أرنب هارب وعيناه تضجان بخوف مميت لحقت به بدرية فاصطدم في برميل قمامة وسقط على الأرض فاهتاج جسده ودخل مع الهواء في عراك دام ركله من دون توقف وهو يعوي ويئن والزبد الأبيض ينثّ من شفتيه، أمسك بخناق الهواء ورجّهُ بقوة وطوّح به صوب الجدار وحين اقتربت بدرية توقف عن العراك وجلس لاهثا في فيء الجدار تركته بدرية وأسرعت إلى الأجساد الصغيرة الباكية التي تحلَّقتْ حول فوهة المجاري المفتوحة في وسط الزقاق، كانت عيون الأطفال تحملق بيأس في جسد الطفل الغاطس في المياه الثقيلة الآسنة، كان لا يزال حيا حينما اقترب حمّودي وشق دائرة الأجساد المتراصة ونزل في فوهة المجاري وأخرج الطفل وهو في النزع الأخير،

أمسكته بدرية من قدميه، رفعتها إلى الأعلى وجعلت رأسه يتدلى باتجاه الأرض، نفضت جسمه المنتفخ فاندلقتْ من فمه مياه رصاصية وخليط من شوائب شتى... فتح عينيه.. نظر في الوجوه التي استدارت حوله.. نهض الطفل معافى ضممتهُ بذراعي وضغطته إلى صدري.. أنا أنقذته من الموت وكلكم تعرفون ذلك.. أنا حمّودي بلحمه ودمه أقف بين أيديكم... ليس بي مس أو شيء من جنون وأنتم أدرى مني بذلك وفي سركم ستقولون كلمتكم الفصل.. هل أنا مخبول.. أنا لا أظن ذلك ولو أنّ أحدا منكم حدث له ما حدث لي لأصابه الجنون فعلا أما أنا فقد كنت عنيدا في صراعي مع الشيطان الذي يقبع في رأسي ويشرئب إلى الأعلى كما لو انه يحاول إغاظة السماء، نازلته بتقاليد الفرسان الشرفاء وهو يختال بخبث الثعالب لا يتحرش بي وأنا بعيد عن الناس وإذا وجدني بينهم يشهر سلاحه بوجهي ويهيج بلا رحمة فأمدّ يدي إليه أداعبه بأنامل متوسلة لكن الأصوات تضج في رأسي نادبة تنوح بلا طائل في دروب الحي والناس إذا سمعوني أنتم إذا سمعتموني تقولون لقد جنّ حمّودي.. انزلق الطفل فوق صدري نازلا باتجاه الأرض وغاب عني مثل حلم جميل خاطف بلعته غمامة الجنون التي عصفت برأسي وأنا أرى الكلاب يأخذون مني زوجتي بدرية ويتركوني لأرصفة الشوارع، كانت ترافقني إلى رأس الزقاق وتضع في جيبي تعويذة الرحلة الجديدة إلى الموت تحمل حقيبتي وأمام الغرباء قبل أن أرتقي سيارة الوداع تقبلني قبلة الوداع قبلة لا تشبه الأخريات ملائكية ساحرة تزرق في دمي رحيق البقاء وهناك

في أرض الموت ألوذ بها من سهام الشياطين التي تتسارع بين أجسادنا، كانت تحميني من الأذى قد لا تصدقون كلامي هذا لكنها في الأيام الشيطانية الهائجة المشحونة بالموت كانت تأتيني إلى ارض الجحيم وتلبسني درعا جديدا تعويذة ما أنْ أحطّها على صدري حتى تتحول إلى كتلة من جليد ناصع سميك تنطفئ على جدرانه رماح الموت النارية المتلاحقة فأشعر أنني في مأمن من أي شيء ... ثلاثون يوما مزحومة بالهلاك تزحف ببطء شديد لكنها تنتهي وأعود إلى زوجتي بدرية بسحنة مطلية بغبار الشياطين التي لا تشبع من لحم الأجساد المتناثرة على أرض رملية ظامئة.......

آه... يا بدرية... يا ساعة فرح في عمري المشبّع بالعويل، أخذوك مني قبل أن تمدّي يدك وتستأصلي روح الشيطان القابع في رأسي، قبل أن تُخمدي هذا الصوت النائح من دون جدوى.... تفتح ذراعيها وتشد جسدي إليها.. تقبلني وأنا مطلي بالغبار الأسود.. تمسح وجهي وتبتسم.. ألامس روحها فيغسلني رذاذ سماويّ بارد يزيح الغبار عن جسدي، تغيّبني طراوة الروح في أجوائها الفردوسية الشاسعة.. أتيهُ في سماوات ملونة بالورد والغناء.. شيء ثقيل يتهاوى عن كاهلي وأحلّق بجسد خفيف كطائر صغير.. أسبح في مهرجان راقص.. ويخطفني عالم من الفرح البهي.....

وفي ليل حالك يسري ضوء شحيح متخافت من الكوة مخلوط بأنين خفيض متواتر ينسكب من جوف الزقاق ويسيل صوب الأبواب المقفلة يدقها بنقرات

خفيفة حائرة كنبضات القلب العاشق.. الأبواب لا تنفتح والأنين سيل لا يتوقف يقتحم القلوب ليطرق الرؤوس والقلوب الجاحدة.. أنين جسد حار ملقى عنوة في حجرة صغيرة كفرن شواء.. اعتاد الناس هذا الأنين الذي قلما يسكت أو يتضاءل سوى بدرية هذه المرأة التي ما غفتْ لها عين وهي ترقب النداءات المبثوثة إليها.. كان الأنين يحوم فوق جسدها وحين ذاك تطلق صوتا هادئا رقيقا ينزلق في الفضاء كموجات ضوء ينحسر ليصبح حزمة متراصة مرنة تنفذ من الكوة إلى جوف الفرن ثم تتساقط مطرا ناعما فوق جسد ساخن فيخفتُ الأنين ويهدأ الجسد المحاصر وينام وإذ ذاك تنفتح العيون وترتفع الرؤوس وتتساءل لماذا سكت الأنين؟! ثم تلتقي الألسن الجائعة وتنفتح الأفواه لتلفظَ وساوسَ الليل:

ـ حمّودي برأ من دائه فانطفأ الأنين......

ـ أنا رأيت بدرية تدخل إليه ......

ـ جسمه لم يعد يحتمل ....

ـ ربما مات منذ زمن بعيد......

ـ الحرب قتلته......

ـ أبوه أرسله إلى الريف.....

ـ ثمة من رآه في مدينة كبيرة قصية.....

ـ لماذا ينبح طيلة الليل......

ـ هو يقول شيطان الحرب يعوي في رأسي....

ـ بدرية تقول الناس دفعوا به إلى الجنون ......

ـ هل مات حمّودي حقا؟!

ـ بدرية تقول حمّودي باق لا يموت....

بدرية تتخفى تحت جنح الليل... تسير بمحاذاة الجدران.. ملفعة بعباءتها تبتعد عن أعمدة النور.. تتحاشى العيون خائفة مرتعدة تصل إلى الكوّة فترتد إلى الوراء تتساءل من أغلقها؟!، تلوب روحها وهي تمسِّد وجه الجدار بأكمله ويظهر جسد حمّودي، ساطعا يفتح لها ذراعيه تتقدم إليه فيحضنها ويستنشق عطرها فتمتلئ رئتاه لينام على كتفها تمد يدها في فروة رأسه وتبحث عن النتوء.. تخاتله فيقع بين أصابع كفها فتقتلعه وترمي به بعيدا في شعاب الأرض.. يتحرر الرأس من سنوات طويلة مدججة بالموت.. ثمة بوح بأصوات شجية مشوبة بحزن رقيق.. عتب ولوعة وبقايا عشق كبير.. يلتصق الجسدان كتلة من نور لتبدأ طقوس التسامي.. حزمة ضوء ترصدها العيون تخرج من كوّة صغيرة وتمضي باتجاه السماء شهابا ساطعا يدور في الفضاء ثم يعلو ويعلو صوب النهايات البعيدة وينفذ إلى ما وراء النجوم.

مَشاهد من سيرة الألم

-1-

رياض شاب يعشق الحمام، لا يجني الكثير منه، كنتُ أسأله لماذا لا تجني الحمام كثيرا، يقول لا أريد أن يتشتت حبي، يأتي بأنثى وفحل، وزوج آخر من النوع نفسه، يصبح المجموع أربع، من صنف (الأورفلي)، وعندما أسأله لماذا هذا النوع؟ يقول طيور الأورفلي تطرد الشر وتجلب الرزق.....

يرعى رياض حماماته، يأتي لها بأرقى أنواع الحبوب على الرغم من سعرها المرتفع، يبدّل لها الماء كل ساعتين، وكثيرا ما كان يتحدث مع حماماته، يناغيها، وكانت أمه تسمع ضحكته وهي في الطابق الأسفل من البيت، فتعرف أن رياض يحدّث حماماته ويضحك معها...

في الفجر يبدأ الحمام هديلهُ، يحلم رياض بحبيبته، يهمس بأذنها:

ـ هل تسمعين الهديل؟

ـ نعم.

ـ هل تحبين الحمام؟

ـ كما أحبك تماما، الحمام يجعلك دائما معي، حتى عندما تغادر للحرب، فأنت معي.

عندما وصلت سيارة الأجرة وعلى سطحها نعش رياض، كانت حماماته تراقب المشهد من فوق ستارة البيت، كأنها عرفت برحيله، لقد أخذته الحرب بأحضانها.......

الحمام لم يعد يشرب ولا يأكل، أيام مرت والحمام لم يخرج من القن، عزلة الحمام كانت قاتلة، انقطع الهديل تماما، السواد ملأ السطح والبيت والقلوب..

كثيرون قالوا.. سمعنا الحمام وهو يبكي...

-2-

القشطة تلمع في الصحن النظيف، تجلس صبيتان خلف الصحن، أرغفة الخبز بيضاء ساخنة يتصاعد منها بخار مثير، أنا اجلس على بعد أمتار خائفا، أراقب إحداهن وهي تثلم الرغيف وتغمس الخبز في القشطة ثم العسل ثم إلى فمها، اللعاب يتكدس في حلْقي، الثانية تنظر إليّ وتبتسم، الأولى تقايضني بصلف، تقول لي بلغة واضحة صارمة مغموسة بابتسامة واثقة، إذا أردت أن تأكل معنا عليك أن ترينا (إياه)، وإذا لم تفعل، لن تتذوق طعم القشطة والعسل، أنا لم استغرب الطلب، بل قابلته بطلب أكثر صلفاً، قلت لها سأنفّذ طلبك شرط أن تتوقفا كلاكما عن الأكل، أريد الصحن كله لي هو والعسل، فورا كفَّتْ الاثنتان عن الأكل، فيما أخذت تلمع القشطة بإغراء في الصحن، التوقف عن الأكل دلالة على موافقة الأولى، أما الثانية فقد كانت غير مستعدة للتضحية بوجبتها الصباحية الدسمة، لكنها لا تستطيع مخالفة أختها، كانت الأولى متلهفة لرؤية السر الذي سمعتْ به

كثيرا، حين كان أطفال الحي يحكون عنه فيما بينهم، أنا قرّرتُ مع نفسي أن لا أبالي بالأمر وأوافق على شرطها، المهم أن أحصل على القشطة وأهرع بها إلى أخوتي الأصغر مني في البيت، نعم شعرت بشيء من الظلم، لكن الحصول على القشطة يستحق أن أتعرض إلى بعض الظلم، طلبتُ من الأولى أن تضع أرغفة الخبز والقشطة والعسل في كيس، وتسلمني إياه، وفي لحظة استلامي الكيس سوف أطلعها على ما ترغب، رفضتْ في بادئ الأمر، لكن رغبتها الكبيرة دفعتها للموافقة على طلبي، جمعتْ الأشياء كلها وسلمتني الكيس بكفّ مرتعشة وعيون تتطلع بوجع لمعرفة السر.

لازلت حتى هذه اللحظة أتذكر السعادة التي غمرت أخوتي الصغار وهم يتناولون القشطة والعسل ويتضاحكون، أما أمي فلا زلت أتذكر دعاءَها وهي تردد (الله يبعد عنك الظلم يا ولدي).

-3-

أمس كان جاري يسقي حديقته في لحظات الغروب، جسد نحيل بوجه مشرق، رشاش الماء يبلل أوراق الشجر، فتبدو مثل وجوه العرائس، كان الرجل شغوفا بالحياة، متمسكا بها، يحبها بطريقته، ويزرعها في كل مكان يصل إليه، لم يكن يشكو من مرض خبيث، أمراضه عادية ومتباعدة مثل أي إنسان بصحة جيدة، يصغرني بخمس سنوات..

صباح اليوم عندما فتحت باب البيت، قرأت لافتة سوداء تؤكد موت جاري، لم تكن صدمة بالنسبة لي، لان الموت ينتشر في كل مكان من بلدي، فربما تفقد حياتك في الشارع أو المقهى أو المطعم بل وحتى في البيت..

رحل جاري.. صديق الأشجار.. اليوم قبل قليل مررت قرب الحديقة، وقفت في مكان الرجل الذي رحل فجأة، من دون سبب مفهوم، رأيت حزن الأشجار، واصفرار الأوراق حزنا على ساقيها، شعرت أنها تعيش حالة اليتم.. بدأتُ أسقيها، أخذت مكان جاري وتعهدتُ للأشجار أن أواصل مهمتهُ...

تذكرت أنني أحمل أحلاما لا حدود لها، أحلاما تطمح أن تغير العالم.. لم يخطر في بالي أنني قيد الزوال أيضا...

-4-

قبل قليل شبكتُ كفي بكفها، أخذتها إلى النافذة، طلبتُ منها أن ترسل نظرها بعيدا، إلى تلك الحدائق التي تموج بالحركة، ربما هي حركة أشجار، أو أجساد رشيقة لصبايا العيد، أو حمائم تتنقل بين الأغصان، قلتُ لها، لنحوّل غرفتنا الأمينة هذه إلى متنزّه أو خميلة جميلة، نتمتع بها معا، فالحياة خارج غرفتنا هذه غير آمنة، لنذهب إلى الحدائق ونحن في غرفتنا...

أطلقتْ بصرها إلى البعيد البعيد، وأنا فعلت الشيء نفسه، أصابعها كانت تلامس أصابعي كالنسيم، دفء جسدها يتسرّب عبر أصابعي، تجولنا تحت الأشجار،

ألقيتُ جسدي على الحشيش الناعم، نامت إلى جانبي، رأسها على ذراعي، المساء في الحدائق رائق جميل منعش لا يشبه أمسيات المدن الأخرى!، يباغتنا المساء بعذوبةٍ بِكْر، عشرون سنة قضيتها متسكعا في هذه المدينة، لم أعش لحظات كهذه، لم يمر بي نسيم كهذا، حتى الطيور التي تنام ليلا، تطلق الآن ترانيمها الساحرة، بالقرب منّا كانت تمر أجساد كثيرة لرجال ونساء وأطفال، العيون تنظر إلينا بمرح وحبور، تشعّ فيها أضواء الحب...

أصابعها تلامس أصابعي كأنها تعزف موسيقى أغنية سكن الليل لفيروز، كل شيء عذب هنا، حتى أريج الزهور يملأ الرئتين ويحيل الجسد إلى مملكة عطر، رأيت ألعاب الأطفال قريبة منا، تتحرك بطلاقة، رأيت الأطفال يتقافزون بمرح، لاحظت العشاق ينفردون بـ بعضهم تحت أشجار وارفة، أحدهم سرق قبلة خلسة، حاولت أن أقبّلها، تمنّعت ثم رفضت لأننا في مكان عام.

القمر أو الهلال الصغير يبعث نورا رقيقا، نجيمات السماء تغني للقمر، قلبي يغني لها، وضعتُ كفي على كفها بحنو، عدنا إلى النافذة في غرفتنا الأمينة، المساء صامت في الأفق، لا حدائق ولا طيور ولا أشجار ولا أجساد...

أغلقتُ النافذة.. نحن الآن في غرفتنا الآمنة...

-5-

فتحت الباب، رأيت قطة وحيدة في يومها الأول، ترعش تحت سيارتي.. فوق ارض تحترق بلهيب الصيف.. كنت انوي الخروج لكنني توقف وأغلقت الباب علَّ القطة الأم تعود لطفلتها وتحملها إلى مكان آمن وبارد..

عدت إلى غرفتي و وحدتي، تذكرت ذلك الجرو الذي وجدته مرميا في قمامة مهملة، كنت خارجا إلى الدوام صباحا، كان جسد الجرو ساكنا هادئا كالموت، وعندما ألقيت نظرة عليه كأي شيء مؤلم، لمحت رجفة خاطفة في ساقه الخلفية، حملت الجرو من فوق النفايات وعدت به إلى البيت، وضعت عليه دثارا من الصوف (كان الفصل شتاءً)، وبقيت أراقب نبض الحياة فيه، طلبت من زوجتي أن تهيّئ قنينة حليب صغيرة، وفعلتْ فورا، دفعتُ حلمةَ القنينة في فم الجرو وعصرتُها، تدفقَ الحليب في فمه، بعد قليل رأيت الجرو يشرب رحيق الحياة، ودبَّتْ في أوصاله حرارة جديدة، ستبعد عنه شبح الموت، أوصيت زوجتي أن تهتم بالجرو كطفلها وخرجت، شعرت بسعادة وفرح، ها أنني أعدت روحا إلى الحياة، كبر الجرو، صار كلبا وكبرتْ معه أنانية مستفِزّة، احتلّ حديقة البيت، طرد الدجاجات، وصارع الديك الوحيد، تصرّف الكلب (الجرو) بأنانية غريبة، نقلته إلى مكان آخر، عاقبته، سجنته (14) يوما بسبب أنانيته، أخفيت نفسي عنه طيلة هذه المدة، وعندما انتهت مدة العقوبة، قلت لابني هات الكلب، أعدْهُ إلى

الحديقة، عندما وصل الكلب إلى الدار، ظلّ يتقلب تحت قدمي مدة طويلة، ويلعق ساقي بلسانه ويشم جسدي بطريقة من يعتذر عن الخطأ، وشعرت انه تعلم الدرس المطلوب، أطلقته في الحديقة، ولاحظت انه بدأ يحترم الديك والدجاجات ويتصرف بطريقة هادئة، شاخ الكلب، ومات في ظهيرة ساخنة أيضا ....

فتحت الباب مرة أخرى، لم أجد القطة الصغيرة تحت سيارتي، لكنني سمعت مواء الأم، لم أشأ الاقتراب منها حتى لا تهرب وتترك قطتها الطفلة، تأكدت أن القطة عادت إلى الحياة، وشعرت بسعادة تشبه سعادتي حينما أنقذت الجرو من موت أكيد...

–6–

أتابع فلمًا عربيًا في مقهى (أبو ياسين) بحي رمضان، في جيبي عشرة فلوس فقط تكفي لتسديد الشاي الذي شربته مقابل الجلوس في المقهى، الدنيا ليل وغداً يوم عيد، وأنا لا املك سوى هذه (العشرة فلوس)، فكرت أنني لن ادفعها لأبي ياسين القهوجي، حتى أستطيع غداً أركب الأرجوحة المنصوبة بين نخلتين شاهقتين في منطقة (الحر)، ثم حلمت أن جيبي يغص بالفلوس فجأة، فكرت أشتري ملابس جديدة، وحذاءً لّماعا، سأنثر الدراهم على أخوتي وأخواتي، سأركب في العربات التي تقودها الحمير أو الخيول أحيانا، سوف أطلق العنان لصوتي مع الأطفال في أول أيام العيد نردد أهازيج الفرح، فجأة رأيت عين (أبو ياسين) تراقبني، تأكَّدتُ

من وجود العشرة فلوس في راحة يدي، قبضت عليها بقوة، وتركت المقهى هارباً من الباب الخلفي، صرت بعيدا عن المقهى، لم يلاحقني احد، هدأتْ أنفاسي، نظرت إلى السماء، كانت صافية مرصعة بنجوم هادئة، فرحت لأنني أستطيع غدا أن أركب الأرجوحة، في الطريق رأيت أربعة مراهقين بعمري يشكلون دائرة ويلعبون (الزار) مقابل خمسة أو عشرة فلوس، جلست معهم، قامرت بمبلغ الشاي، قلبي ينبض بخوف، رميت الزار المكون من 12 نقطة، حصلت على 11 ورمى الآخرون أيضا، كنت الأعلى وفزت بأربع عشرات، أربعين فلسا، مبلغ كبير، ولعبت مرة أخرى وأخرى، كنت الأعلى دائما، في عشر دقائق كسبت الكثير، قبضة يدي امتلأت بعشرات الفلوس، مع نفسي فكرت أن أكفَّ عن اللعب، خشيتُ من الأولاد الأربعة، ربما يطالبونني بالاستمرار، فجأة تركت اللعب ونهضت بقوة، لم ينبس أحد بكلمة، أطلقتُ خطواتي إلى البيت، رنين القطع المعدنية في جيبي يبعث موسيقى صاخبة، فرح صاخب أيضا يجتاح قلبي، في دقائق قليلة أصبحت غنياً، غداً في أول أيام العيد سوف أكون أغنى الأطفال، وصلتُ بيتنا، طرقتُ الباب الحديد، لم يفتح لي أحد، سمعت صوت صراخ وضجيج، قفزت وعبرت سياج البيت، ركضت إلى الغرفة، وجدت أبي طريح الفراش يعاني من آلام مبرحة في البطن، خرجت مذعورا إلى الشارع، أتيت بسيارة أجرة (تكسي) ذهبنا بأبي إلى مستشفى الطوارئ، حقنوه بإبرة مخدرة، بعد نصف ساعة

عدنا بسيارة الأجرة نفسها، وأفرغتُ جيبي تماماً ووضعتُ النقود كلها بيد السائق.. تذكرت الأرجوحة، وعرفت أنني لا أستطيع الصعود فيها غداً...

-7-

للغرف المكيَّفة في فنادق الدرجة الأولى، رائحة خاصة، تبعث الرخاء في جسد النزيل، أتذكر تلك الرائحة التي أتنفسها الآن في غرفتي بالبيت، أشعر بالرخاء والحزن في وقت واحد، الكهرباء ستنطفئ بعد قليل، ومعها سيزول الرخاء وعطر الفنادق الفخمة، من النافذة أنظر السماء التي بدأت تفصح عن ابتسامة فجر رقيق، تنطفئ الكهرباء، يغيب عطر الغرف المكيفة، وتغدو غرفتي في البيت ساونا صغيرة تكسو جسدي بالعرق، أحمل فراشي واهرب إلى السطح، أتمدد على سرير نابضيّ يصطف إلى جانب الستارة الفاصلة بيننا وبين الجيران، هواء الفجر منعش لا يقل عذوبة عن رائحة غرف الفنادق، أنظر إلى السماء الصافية وأغفو، بعد قليل يفاجئني وجه أنثوي يمتد عبر الستارة من بيت الجيران، وجه يشبه طفولة القمر، أعرفُ إنني أحلم، أحاول أن أستثمر الحلم، أفتح عينيّ، أرى الوجه الأنثوي فوق وجهي، أصعد إليه، يهبط إليّ، تلتقي الشفاه، أشرب من شفتيها رحيق الفجر، أسمع ترنيمة أنفاسها، أستنشق أريج الغرف المكيفة وأريج الأنثى، كلاهما يلتقيان في عطر واحد، أريج يبعث الرخاء في الجسد...

في نهايات العمر.. تغيب رائحة غرف الفنادق المكيفة.. يغيب الرخاء.. ويختفي الفجر.. الوجه الأنثوي.. أنا بانتظار رخاء السماء.

-8-

في عصر ربيعي قادتني خطاي إلى كلية الفلسفة في جامعة بغداد بمنطقة باب المعظّم، كنت على موعد مع صديقين يدرسان الفلسفة، كي نقضي بعض الوقت في نادي الجامعة، ونخرج نتسكع في باب المعظم والميدان وشارع الرشيد، لننتهي أخيرا في اتحاد الأدباء، قبل أن اصل باب الجامعة بقليل فاجأتني لوحة من الخزف أو مادة النورة، لا أتذكر بالضبط، كان نصفها الأعلى مهشما، أما النصف الأسفل فكان سليما، وبدت لي لوحة جميلة وأنيقة، إلى جانبها كان يقف طفل ابيض جميل، بدت دموعه تجري فوق خديه، ويطلق نحيبا مسموعا، توقفتُ عند اللوحة، حاولت اجمع شظاياها، ثم طلبت من الطفل أن يكف عن البكاء، قلت له: كم ثمن اللوحة؟. قال: سبعة آلاف...

طلبت منه أن يساعدني في جمع القطع الصغير المتناثرة على الإسفلت، ووضعت النصف السليم في كيس نايلون مع الشظايا وسلمته الثمن، وأخرجت ورقة (كلينكس) بيضاء ومسحت دموعه ووضعت قبلة على جبينه، وطلبت منه أن يكف عن البكاء، حملت اللوحة في الكيس وواصلت سيري إلى الجامعة، ابتعدت عن الطفل خطوات، أدرتُ رأسي إليه، وجدته مسمّراً في مكانه، ينظر إليّ، وفي

فمه سؤال، أو يرغب بكلام ما، خاطبتهُ من بعيد: هل تريد أن تقول لي شيئا؟ لم يجبني لكنه ظل واقفا في مكانه، تركته وشأنه، دخلت بوابة الجامعة، وصلت كلية الفلسفة، التقيت الصديقين، لاحظا الكيس ونصف اللوحة المهشمة والشظايا، كان النادي يموج بأجساد كثيرة، طالبات وطلاب، ضجيج عال، علب العصير الفارغة كثيرة، دخان السجائر يتصاعد دوائر تلتف حول بعضها، كان وجه الطفل، رغبته بالكلام والسؤال، تسكنني، بعد ساعة سألني أحد الصديقين: ما هذه؟ قلت: لوحة مهشمة. ضحك فجأة وقال: هل خدعوك؟ لم افهم ماذا كان يعني بالضبط، كنت أفكر بالطفل، وأسأل نفسي (لماذا لم أتح له فرصة كافية كي يفصح عن رغبته بالكلام) ...

خرجنا من الجامعة، ثلاثتنا، أنا احمل كيس اللوحة المهشمة، وهما يحملان حافظتين للكتب، عدنا من الطريق نفسه، رأيت الطفل، يجلس وحيدا دونما لوحة أو صديق، كنا نسير من الجانب الآخر للشارع، لم يتنبّه الطفل لي، كانت تقاسيم وجهه المعبّأة بالتساؤل واضحة لي، كان بصره يتدفق نحو باب الجامعة، كأنه بانتظار شخص ما، لم اعرف من هو إلى الآن...

-9-

ظلمة آخر الليل كثيفة، أنهض من فراشي، يتدحرج جسدي النحيل هابطا على درجات السلّم... أركض إلى الباب، أعرف أن حمزة صديقي ينتظرني، أغسل

وجهي وافتح الباب، نمضي معا في الظلام، نشق صدر البساتين الكثيفة، جسدان نحيلان على مشارف البلوغ، نعرق مع أننا في برودة الفجر، نصل معمل المرطّبات (الاسكيمو)، انتشل عربتي من بين عشرات، ارتّبُ خزانها المعدني، أهشّم حوله الثلج، انثر الملح فوق الثلج حتى لا يذوب ويحافظ على برودة الخزان، الذي يمتلئ بقطع المرطبات (الآيس كريم)، نفترق أنا وحمزة، كلّ في طريق، عربتي ستقودني كالعادة، تمضي بي إلى حي الإسكان، تصل إلى رأس الشارع، تركن نفسها تحت عمود النور ولا تتحرك، تنظر نحو الباب الأزرق، بانتظار وردة الصباح، تخرج حبيبتي مثل كل يوم إلى مدرستها، فراشة بيضاء، تتحسس منها الشمس، وتحسدها أزهار الحدائق، تمرُّ بالقرب مني.. من العربة، تتبسَّم كالعادة، تتلقَّف قطعة الآيس كريم وتقفز مرحا، تترك عطرها في روحي وتمضي، في الأيام الأولى كانت تعطيني قطعة نقدية، وعندما رفضتُ استلامها مرارا، كفّت عن ذلك، وأخذت تعطيني وردة أو حلوى أو عطرا أحرص أن لا ينفذ مني، مع الشهور والسنوات شاخت العربة وأنا شختُ معها، فراشتي صارت تمضي إلى حدائق أخرى، الشمس لم تعد كما كانت، صارت تحرق جبهتي، واليأس ينال مني، غابت وردتي طويلا، لا اعرف أين اختفت، سنوات والعربة تقف كل صباح تحت عمود النور بانتظار الوردة، ومعها قلبي ينتظر، وكثيرا ما طلبتُ من العربة أن نكفّ عن الانتظار، ونغيّر المكان، كانت ترفض وتقول لا تفقد الأمل.

اليوم صباحا خرجتْ زهرتي من الباب الأزرق، امرأة ناضجة، صعدت في صدر السيارة الفارهة الحمراء، رفَّ قلبي عليها وارتجفت العربة، فوجِئنا أنا والعربة، تمنينا أن تمر بنا، تأتي إلينا وتطلب قطعة المرطّبات، اقتربت السيارة كثيرا، العربة تنظر إلى المرأة الجميلة، قلبي ينبض بسرعة هائلة، صارت السيارة إلى جانب العربة تماما، نعم هي فراشتي الصغيرة، عرفتُها، لم يتغيّر فيها شيء، سوى أنها لم تعد ترغب بقطعة (الاسكيمو)، لم تنظر للعربة، لم تنظر إليّ، هبطت بسيارتها في الشارع العام وغابت عني وعن العربة في لمح البصر.

-10-

إلى جانب بيت نوفه العاقر، يقع بيت حبيبتي الشقراء ذات العيون الخضر، بيتنا يقع مقابل بيتها، كان يسميها الشباب والمراهقون، (الفتاة الأوربية) لجمالها، لا أنسى اللقاء الأول الذي جمعني بها على قارعة الطريق غروبا، حينما مسكت يدي بيدها الصغيرة و وضعتها على قلبها، فأحسستُ نبضها يتلاحق بذعر يتناقض مع سعادتها آنذاك، في الأيام الأولى كنت أقضي النهار كله فوق سطح بيتنا، أتناول وجبات الطعام الثلاث تحت شمس الصيف القائظ، هي في السطح المقابل، نتعامل بالإشارات، لا نملّ الكلام بالأصابع، يمضي الوقت سريعا، المسافة بين الصبح والغروب تصبح قصيرة كغمضة عين، لا نشعر بها، ولا بالحر المجنون الذي تسكبه الشمس على رؤوسنا، أمي هي الوحيدة التي عرفت بقصة غرامي،

أخذتني جانبا وقالت لي: إذا عرف أبوك بالأمر سيطردك من البيت أو يحبسك في الغرفة، الحب يا بنيّ يبيّض الوجوه ولا يسودها !!، ركضتُ إلى المرآة، رأيت وجهي، بدا لي سبّورةً سوداء بسبب لفح الشمس، نوفه العاقر أظن أنها عرفت بعشقنا أيضا، رأيتها تتلصص علينا، لم نكتفِ بالإشارات من بعيد، قمنا بمد خيط ابيض رفيع بين سطحينا، وربطنا في طرفيّ الخيطين كأسين من البلاستك، وبدأنا نتبادل الحديث، أضع الكأس لصق فمي وهي لصق أذنها وأبدأ أغني لها، أراها تتمايل طربا على السطح المقابل، أعرف أن صوتي الولهان يصل إليها، تضع الكأس لصق فمها وأضعه لصق أذني فأسمع شهقات الحب بصوتها العصفوري أتقافز فرحا، شيء جديد ستقوم به أيضا، قذفتْ من سطحها قطعة بسكويت مدوَّرة خفيفة، أرسلتها بخفة العاشقة نحوي، لا أعرف أي تصويب رهيب أوصل البسكويت إلى يدي تماما، أنا بالمقابل سوف أرسل لها تفاحة حمراء ملساء تشبه كرة صغيرة، كان يجب أن تكون مهمتي أسهل فأضع التفاحة في كف حبيبتي تماما، لكن حين صوّبتها وقذفتها انحرفت صوب بيت نوفه وسقطت في حديقتها، فسمعت صوت نوفه وهي تلعن المنطقة جميعا. هربتُ من السطح وكذلك حبيبتي، بعد دقائق صمت، عدنا.. وبدأت لغة الأصابع بيننا حتى الغروب، بل حتى العشاء، شهور بل سنوات ولم تتوقف لغة الأصابع بيننا.. الآن كلما أتصوّر أنها ذهبت إلى رجل غيري، ولم تكن من نصيبي، أرفع يدي إلى وجهي، أتحسس

السواد الذي حفرته الشمس في بشرتي ومسامات جلدي، وأتذكر كلمات أمي..

الحب يا بنيّ يبيّض الوجوه دائما...!

حب جامعي

سميرة طالبة فائقة الجمال، أنيقة، متوازنة، مرحة، تتحدث مع الجميع من دون تردد أو خشية أو عُقَد، تلاطف الجميع، طالبات وطلاب، ذكية، متفوقة، علاماتها في معظم الدروس عالية، كنت أنا الأول على دورتي في السنة الأولى (علوم سياسية)، وجاءت هي بعدي مباشرة، تفصل بيننا أعشار الدرجة.

بعد هذا التسلسل في درجات النجاح، قررت أن تربطني بها علاقة خاصة، مع أن الأمر يبدو صعبا إن لم يكن مستحيلا، تبعا لطبيعتها التلقائية التي تنظر من خلالها إلى الجميع نظرة واحدة، لا تفضّل أحدا على آخر، في أحد أيام المرحلة الثانية، بعد أن انتهى الدوام، لم يأتها أبوها في الوقت المحدد، تأخرت السيارة عليها، فتقدمت منها بثقة وقلت لها أنا سأقوم بمهمة إيصالك إلى البيت في احد أحياء (بغداد) لم تقبل في البداية، لكن سخونة الجو ويأسها من مجيء أبيها وخوفها من سائقي سيارات الأجرة، دفعها للقبول، فتحتُ لها الباب الأمام، ترددتْ قليلا ثم ركبت في صدر السيارة، كانت قلقة، تشعر بالحرج، وكنت أحاول انتهاز الفرصة كي أفاتحها بعلاقة عاطفية دائمة، لكنني فكرت أن التوقيت خاطئ لمثل هذه العلاقة، وسأبدو سخيفا ومستغلا لها، لأنها تصعد الآن في سيارتي، لذا أجلت مفاتحتها إلى فرصة أفضل، وبدأنا نتداول أحاديث عن الدروس والمحاضرات والأساتذة وعن المستقبل وماذا تحب أن تكون وما هي مشاريعها، كان الحوار جميلا، سلسا، لدرجة

أن الحرج الذي لازمها في دقائق الصعود الأولى سرعان ما تلاشى في الحوار التلقائي المتبادل بيننا، وصلت سميرة إلى البيت ولم تغلق باب السيارة، فقلت لها: هيا أغلقي باب السيارة. قالت: لا أغلقها!!. قلت: أرجوك أنا أعيش في مدينة أخرى وتأخرت. قالت: عليك أن تنزل من سيارتك وتدخل معي حتى يعرف أهلي أن أحد أصحابي من دفعتي في الصف هو الذي أوصلني.

أقنعتني بذلك ودخلت معها، في غرفة الاستقبال عالم جميل لم اطل عليه من قبل، لوحات عالمية تتصدرها الموناليزا، وتحف تتوزع الجدران، ومكتبة عامرة بكتب متنوعة، وزهريات كبيرة وصغيرة أصيلة وجميلة، و (كيتار) كبير برتقالي اللون يرتكن في الزاوية، ولوحة لرأس حصان بتوقيع فائق حسن كما أتذكر، وأخيرا عطر كأنه من جنان السماء، آه يا إلهي، هذا العالم الساحر أريد أن أعيش فيه إلى الأبد، أطلت امرأة في الستين، وجهها أحمر مثل رمانة رائجة، لها عينان تشعان بقوة، بدت ابتسامتها فريدة من نوعها، رحبت بي بجمال وصدق، وشكرتني بعد أن قدمتني لها ابنتها سميرة، بعد لحظات جاء مراهق جميل جدا، قالت سميرة هذا أخي إبراهيم، صافحني أخوها وجلس إلى جانبي وكأنه يعرفني من زمن بعيد، حاولت مغادرة البيت، لكن عصير الرمان صار بين يدي فجأة وقبل أن ارتشف الرشفة الثانية، انفتح باب خشب على غرفة ملاصقة، طلبت مني الأم أن انتقل إلى غرفة الطعام، لم استطع الرفض، إبراهيم سحبني بقوة ولطف إلى منضدة الطعام التي امتلأت بما لذ وطاب..

آه يا إلهي، هذا العالم هو الذي ينقصني فعلا، بعد أكثر من ساعة صعدت سيارتي وكانت سميرة تلوّح لي وكأنني حبيبها...

في اليوم التالي بدأت بيننا علاقة من نوع آخر، سميرة لم تعد تمشي مع الآخرين، وتقضي وقتها كله معي، ومع الأيام بدأ الحب يكبر، في نهاية السنة استلمنا النتائج، كانت هي الأولى وأنا الثالث هذه المرة، الثاني صديق لي ربطتني به علاقة هائلة، كان ثالثنا الدائم أنا وسميرة، حتى اعتدناه نحن الاثنان، وحين يغيب لأي سبب يكون فراغه مزعجا جدا، في السفرات الجماعية كنا معا ثلاثتنا، في الصف مقاعدنا لصق بعضها، في النادي نجلس معا، في الحدائق نتمشى معا، الحوار يجمعنا نحن الثلاثة دائما، وعندما يدخل رابع سرعان ما يتبخر نتيجة لإهمالنا له، هكذا صرنا ثلاثي موحَّد، لا احد يستطيع أن يخترقنا أو يفرقنا، في نهاية السنة كنت الأول وسميرة الثانية وصديقي الثالث على الدفعة.

السنة الرابعة كانت تختلف عن جميع السنوات الثلاث الماضية، فهي سنة المفاجآت كما أسميتها أنا، كنت أظن أن الحب مثل شجرة تنمو بتصاعد وتزداد خضرة وأغصانا وثمارا، وكنت أظن أن الصداقة تدوم إلى الأبد وتدعم الحب، خاصة أن صديقي لم أتعرف عليه في الدراسة بل كنا صديقين منذ وقت طويل سبق دراستنا الجامعية، في الشهور الأولى بدأت سميرة تبتعد شيئا فشيئا، وكانت تختلق الأعذار، حتى حين تأخر عليها أبوها رفضت الصعود معي، أخذتني الشكوك بصديقي، يا لي من أحمق، تأخر أبوها كثيرا فاستأجرت سيارة أجرة تكسي ولم تركب معي،

مشيت وراء سيارة الأجرة تابعتها حتى أوصلتها البيت، نزلت من السيارة وقبل أن تدخل بيتها رأتني بوضوح، نظرتُ إليها بلهفة بشوق وحب نيرانه تلهب كياني كله، لكنها أغلقت الباب ولم توجّه لي دعوة بالدخول ولو كذبا...

في الأيام التالية تأزّم وضعي النفسي وأخذتْ علاماتي تهبط رويدا، أما هي فبقيت متفوقة، وصديقي كذلك، حين فاتحته عن سبب ابتعادها عني، استغرب الأمر وقال هل ترغب أفاتحها بالأمر، رفضتُ ذلك بشدة، بعد أيام قليلة تعرّض صديقي لحادث سير ومات فورا، بعد شهر تقريبا، أعلنوا النتائج، سميرة كانت الأولى على الدفعة، وصديقي مات وأنا (محمَّل/ مكمل) بمادتين)..

لقد رأيت الرجل الذي سرق مني حبيبتي في آخر يوم للسنة الأخيرة، وهو يصطحبها بسيارة فارهة، وتبدو عليه علامات الغنى والترف، وحين مرت السيارة من جانبي، لم تلتفت سميرة إليّ، لكنني تأكدت تماما أنها فقدت عذوبتها وتلقائيتها وإنسانيتها إلى الأبد.

لغة الأرض

شمَّر (خِنْياب) عن ساعديه، بدت عضلاته مفتولة، وجسده كتلة صلبة، دخل إلى الحديقة، وقف في منتصفها، غرز أصابع كفه في الأرض وحمل حفنة من ترابها المريض، نظر إليها وتمعّنها بعمق، راح يتأملها ويركّز فيها، أغمض عينيه كأنه يستذكر سيرةً أو سرّاً ما، أخذ يشمّها، فتغيّر وجهه وهو يستنشق التراب المائل للحمرة، ثم نظر إلى الشاب سلام وسأله:

ـ كم شجرة زرعت في الحديقة؟

ـ أشجارا كثيرة في سنوات متعاقبة كلها يبست وماتت.

ـ ما نوعها؟

ـ أكثرها أشجار نخيل.

ـ وأين زرعت آخر نخلة؟

أجابه سلام وهو يشير نحو زاوية الحديقة:

ـ هنا زرعت آخر نخلة، لكنها لم تصمد طويلا، فسرعان ما بدأ سعفها يميل إلى الاصفرار، جميع الأشجار التي زرعتها واجهت المصير نفسه.

أوراق المخطوطة لا تزال رطبة، تهبّ من حروفها رائحة الحياة والموت، حبيبات حمراء تتناثر فوق سطورها، الكلمات تبدو غامضة أو متداخلة، ولكن عندما تجف ورقة، يتساقط منها الطين الأحمر، وتظهر المعاني واضحة، قد تبقى بعض الكلمات

مشوشة، فتحتاج إلى عناية وتنظيف، وهكذا بصبر طويل ورثهُ (سلام) عن أبيه، أخذ يجفف صفحات المخطوطة بعناية، ينظفها بفرشاة صغيرة ملساء من حبيْبات الطين، ولا يتركها حتى تصبح كلماتها قابلة للقراءة، شرعت أشعة الشمس تجفف الأوراق المستلَّة من أرض الحديقة على مهل، العرق ينزّ من جبين الشاب سلام وأماكن أخرى في جسده، المصادفة وحدها قادته إلى هذه المخطوطة التي طُمِرتْ في حفرة تختفي بعمقها قامة إنسان طويل، ليس هو مَن عثر عليها، وإنما أحد الفلاحين الأشدّاء، كان الشاب سلام قد جلبهُ من القرية التي وُلدَ فيها أبوه، ليس من أجل العثور على هذه الأوراق لأن (سلام) لا يعرف بوجودها في حديقة داره أصلا، وإنما استعان بالفلاح (خِنْياب) لمكافحة مرض خبيث أصاب التربة منذ سنوات وربما عقود بعيدة، استمر سلام في محاولاته الحثيثة لإحياء أرضه، فقد ورث عن أبيه حب الحدائق وزراعة النخيل، لم يخطر في باله أن كلام الآباء كان يُدفَن تحت التراب، وعندما صارت المخطوطة بين يديه، توقّع أن الكلام الموجود فيها، من النوع غير المقبول آنذاك، وقد يقود صاحبه إلى التهلكة، يقول صاحب هذه المخطوطة: (ما كان بوسعي أن أطبعها أو أنشرها، أو حتى أسرّبها بين الناس، بل خشيت أن أسربها بين أقرب الأصدقاء لي، مع أنّ الناس كانوا على دراية بها لأنهم عايشوها، ولكن في الوقت نفسه كان الجميع يخشى التحدُّث عنها أو الخوض فيها علنا، حتى زوجتي تحاشيتُ أن أخبرها بمكان هذه المخطوطة من باب الحذر، لهذا أتوقّع أن القادمين يحتاجون لها أكثر منّا، أرجو أن تدققوا في

أحداث المخطوطة وتشكروا الأرض التي حفظتها لكم في رحمها كل هذه السنين الطويلة، وليس أمامكم سوى أن تتصوروا تلك الأخطار التي واجهها الراحلون، يمكنكم أن تستعيدوا تلك الأحداث المعقدة وتتعلموا منها ما يجعل حياتكم أكثر سلامة وأمناً ورفاهية، فمن وصايا الراحلين لكم أن لا تسكتوا على الأخطاء الكبيرة، ولا تتركوها تمر بيسر بين صفوفكم، ففي حالة الصمت أنتم موتى، أما في حالة الكلام فثمة محاسن تقطفون ثمارها، إنه سوف يضع أقدامكم على درب الخلاص، أما الصمت فلا يقودكم إلا في مسار واحد هو الموت من دون مقابل).

نظر سلام إلى تربة حديقته، لاحظ أنها تتعافى ولكن ببطء، قال لنفسه كأنه يتكلم مع شخص آخر، وأخيرا هُزِم المرض العضال بالتدريج، أفرحه أن الأرض بانت ناعمة نقية، تصلح لزراعة النخيل والبرتقال والأعناب، فالحديقة كما يقول الآباء هي روح البيت، الفلاح (خِنْياب) الملقَّب بطبيب الأرض والذي قَدِمَ به سلام من قرية أبيه بمشورة من أمه لم يدّخر جهدا في إنقاذ تربة الأرض من المرض الخبيث، لم يكن بإمكان سلام منذ ورث البيت من أبيه، أن يزرع شيئا في الحديقة الجرداء، كان يحلم أن يزرع نخلة فيها، انه مغرم بالنخيل، كان يسأل دائما (أين أنتِ يا عمتي النخلة؟)، إنه ينظر للنخلة كأنها كائن بشري، أو وليد جديد ينضمّ إلى عائلته الصغيرة، ولكن أرض الحديقة عانت من العقم والأمراض المعقَّدة، ليس هذا فحسب بل كانت تقتل كل نبتة تُزرَع فيها، لم يترك سلام علاجا إلا وجلبه لها، قام بأنواع المعالجات بالأسمدة وتقليب الأرض ورشّ المبيدات، لكنه كان يكتشف

أن المبيدات والأسمدة نفسها مزيفة ومغشوشة، لهذا لم يتغير لون التربة الأحمر ولم تتخلص من الرائحة الخانقة، كأنّ أديمها معدن مؤكسَد، ما أن تدسّ فيه بذرة أو جذور شجرة حتى تذبل وتيْبس وتموت، جميع البذور تهمد في مكانها، حيّرتْهُ هذه الحديقة، لا يعرف ماذا يفعل لها كي تكون مثل حدائق الناس، كانت روح الدار عليلة منذ أن ورثها أبوه عن جدّه، وعندما انتقلت ملكيتها للشاب سلام، بقيَتْ روحها عليلة، ليس روح البيت وحدها بل روحهُ هو كانت تعاني من علّة يجهلها، ذهب سلام إلى أطباء نفسيين وجسديين ولكن لا فائدة، عجز الكل عن مداواته مثلما عجز آخرون عن مداواة الحديقة.

(خِنْياب) الفلاح الذي يدعونه أبناء قريته بـ (طبيب الأرض) وضع حدا لهذه الآفة، أم الشاب سلام نصحته بجلب هذا الفلاح الخبير، قالت له:

ـ أبوك كان يحدثني كثيرا عن (خِنْياب)، هذا الفلاح الذي خبر أمراض التربة بأنواعها، اذهب إلى قرية أبيك وأجدادك، وعدْ منها بطبيب الأرض.

عمل سلام بنصيحة أمه وسافر إلى الريف وعاد بالفلاح من قرية أجداده، قرية اسمها (أم الرمان)، لم يمانع (خِنْياب) في المجيء مع سلام بمجرد عرف انه ابن صديقه (جميل)، غيّر ملابسه على الفور وصحبه إلى المدينة، لم يندهش الفلاح عندما لاحظ بقايا الأمراض وهي تعيث فسادا بالتراب وتكسوه باللون الأحمر، كان يعرف بفطرته وحكمته أن هذه الأرض تعاني من علل متراكمة، ومع أنه

يتمتع بثقة عالية بنفسه وقدرته على تطبيبها، إلا أن هذا وحده لا يكفي، لأن الحل المكمّل لجهوده يوجد عند أهل الأرض وحدهم وقد أخبرهم بذلك.

في زاوية الحديقة وفي المكان الذي زرع سلام فيه آخر نخلة، بدأ (خِنْياب) يضرب الأرض بفأسه الضخم الحاد، واصل الحفر ثلاثة أيام متتالية، نادى على سلام أن يقترب منه، نصحه أن يتعلم لغة الأرض وأن يبتكر طرقا جديدة في الحفر ودربه بحنكة على ذلك، وطلب منه أن يتابعه بدقة وصبر خطوة بخطوة كي يتقن التعامل مع الأرض، ويتعلم فن الحرث والتطبيب جيدا، وعندما سمع سلام لهاث (خِنْياب)، ورأى جسده يتفصّد عرقاً، فكر أن يجلب له عمالا أجانب أقوياء يساعدوه في الحفر، لكن (خِنْياب) أبى ذلك وقال لسلام بحزم:

ـ اترك الأجانب، هذه الأرض لها لغة خاصة، لا يفهمها إلا أهلها.

واصل (خِنْياب) الحفر من دون كلل، كانت ضرباته تختلف بين حين وحين شدةً وليناً، كأنه يعزف لحناً لم يألفه أحد في هذه المدينة، بدا (خِنْياب) كما لو أنه يتعامل مع كائن حي، كان بين وقت وآخر يهمهم مع نفسه، شفاهه تتحرك، ثم في لحظة يصبح متعصبا، يقطّب حاجبيه وينكمش جبينه ويتعرّج وجهه، وبعد حين تنشرح أساريره ويضحك، قد تعلو ضحكته من دون سبب مفهوم، كان يكلم الأرض عندما لا تستجيب، يمسح وجهها بكفه، كأنه يناغيها على الرغم من أنه يضربها بالفأس، ثم يترك الضرب، يتناول (المسحاة/ المجرفة) ويبدأ يجرف الطين الأحمر الموبوء بمرض غامض ويقذف به خارج الحفرة، وأحيانا ترافقه قطرات ماء حمراء،

ورائحة حريفة، تقترب من رائحة الكبريت أو البارود، واصل (خِنْياب) عمله بتأنٍ ورفق وخبرة، مضى وقت طويل وهو يتكلم مع الأرض بلغتها، حتى توصّل إلى شيء أملس كأنه جلد حيوان مطلي بالمخاط، مدّ يده وتلمَّسه، ربما وجد جُثَّة، وقد يكون ظهر إنسان، غرز أظفاره بالجلد الأملس، ثبَّتَ أصابع كفه فيه، وسحبه إلى الأعلى، أتت مع أصابعه قطعة من النايلون، واصل الحفر حول الكتلة المستطيلة الملفوفة بغلاف نايلون، أكثر من طبقة نايلون تحيط بهذه الكتلة، بعد صبر وحفر فلاح يتقن التعامل مع الأرض، أخرج (خِنْياب) قطعة مستطيلة الشكل مغطاة بغلاف سميك مغطّى بدوره بتراب رطب أحمر، خرج (خِنْياب) من الحفرة التي كان يغيب فيها جسده الطويل، وأخرج معه الكتلة التي عثر عليها، قال لسلام:

ـ لنصعد إلى سطح البيت، المساحة هناك واسعة، والهواء طلق، وأشعة الشمس قوية.

دخلا إلى البيت وصعدا معاً إلى السطح، فقام (خِنْياب) بوضع الكتلة المستطيلة على حجر السطح، وشرع التراب الأحمر يجف منها أو هكذا كان يبدو لهما، وأخذت حُبيْبات الطين تيبس، فتح (خِنْياب) غلاف النايلون، طبقة بعد أخرى، فعثر على أوراق رطبة كانت هي الأخرى ملفوفة بدقة ومغطاة بأكثر من طبقة نايلون ومحاطة بغلاف سميك وتغليف متقن، وضع الأوراق جانبا، وأسندها إلى الجدار، جعلها تحت أشعة الشمس، واصل فتح الغلاف النايلون، فظهرت لهما

بندقية بهيكل معدني مثقّب متهرئ مصاب بتأكسد شديد، هبّتْ منه رائحة أقرب إلى البارود، تخالطها رائحة موتى بعدما يتأخر دفنهم، أعاد (خِنْياب) البندقية المثقّبة إلى مكانها، ولفَّ عليها غطاء النايلون، وقال لسلام بنبرة آمرة:

ـ ارمِ هذا المرض الخبيث بعيدا عن بيتك وأرضك.

أنهى الفلاح عمله وغادر إلى قريته، ومنذ ذلك اليوم بدأ لون الطين يتغيّر في حديقة البيت والحدائق المجاورة لها، وشرع الاحمرار الذي أصاب التربة يضمحلّ بالتدريج، وبدأت بعض الأشجار تنمو بإصرار غريب، وثمة نخلات جميلات بدأنَ يحلّقن بضفائرهنّ في فناء الدار الأمامي، وأشجار أخرى من الرمان والأعناب أخذت جذورها تشق طريقها في التربة الجديدة، لوَّنَ بعض الزهور والورود أرض الحديقة، وشرع يكسوها فراش أخضر، عبقٌ بِكْر ينبثق من أرض الدار ليملأ الفضاء القريب، عادت الروح إلى الدار التي ورثها سلام عن أبيه، وعادت الروح إلى جسده أيضا، هكذا كان يشعر، اتصل سلام بـ (خِنْياب) وسألهُ:

ـ هل كانت الأوراق أم البندقية سببا بعقم أرضي ومرض حديقتي؟

أجابه (خِنْياب) بإسهاب:

ـ أيها الشاب، أرضك تنتمي للحياة، فاحرص عليها من الخبث، راقبها جيدا، قد تعاني من أمراضها القديمة مجددا، فإذا رأيت ذلك عالجها بنفسك كما تعلّمتَ معي، وعليك أن تعلّم أخوتك وأهلك طريقة التعامل معها، يجب أن تتوقع مرض

التربة واحمرار الأرض مجددا، حاولْ أن تتقن التعامل معها وعليك بالصبر والرفق والدقة، إياك أن تستعين عليها بالأجانب، فهي لا تفهم لغتهم ولا تستجيب لهم، فتبقى على مرضها إن لم يصبح داؤها أكثر فتكاً بها وبكم.

ـ وماذا بشأن ما جاء في الأوراق؟

ـ هذا بعض تأريخك، اطّلع عليه وتعلّم منه أنت وأولادك وأحفادك، هذه الأوراق هي رسائل الآباء لكم، حفظتها الأرض في رحمها، ونقلتها لكم من آبائكم لكيلا ترتكبوا الأخطاء نفسها.

فضول كبير دفع الشاب سلام كي يعرف ما حملته الأوراق المدفونة الرطبة من أحداث، قلَّبَ بعضها، وذهبت عيناه إلى آخرها، فرأى توقيعا غير معقّد، كُتِب تحته كلمة (الراحلون)، تنبّهَ إلى الفارق بين الزمنين، وإلى الوصية التي وضعها الراحلون في الورقة الأخيرة، فقد حمّلوا فيها أول شخص يعثر على هذه الأوراق أمانة الاحتفاظ بها، والعمل على توصيلها للناس قدر الإمكان، كي يطلعوا عليها، ثم ختموا وصيتهم بجملة جاءت بصيغة الأمر:

(تجنَّبوا الحروب التي عانى منها الراحلون).

بساتين ملغّمة

هذه الزريبة على الرغم من صغر مساحتها وسقفها النايلون الواطئ وخلوّها من فتحة التهوية، إلا أنها آوتنا وحمتنا من برد الصحراء، في الهزيع الأخير من الليل يتساقط الندى المثلّج، تتلقاه الزريبة بسقفها، فتقي أجسادنا منه، أنفاسنا تحافظ على الدفء في داخلها المكوَّر الصغير، وهكذا تآلفنا معها، فأصبحت بيتنا شئنا أم أبينا، أنقذتنا من النوم في العراء الليلي الصقيعي، والآن ونحن نهمّ بالرحيل نحاول أن نحتفظ بذكرى هذا البيت الواطئ، وسيبقى لنا إلى جانب هذا البيت أثر موجع لا يمكن أن يُنسى، إنه قبر أحد أبنائنا، أكلته ذئاب الحرب، أبوه ينام جنبه منذ أن دفناه هنا، أحيانا نراه وهو يحتضن الرمال ويبكي، رفض النوم داخل الزريبة الواطئة، لم يحمِ نفسه من الزمهرير، كل محاولاتنا لإدخاله باءت بالفشل، أصيب بالزكام والسعال الحاد وارتفعت حرارة جسمه، فقد الكثير من وزنه، لم يدخل الزاد فمه، باغتتني دموعي وأنا أنظر إلى زريبتنا التي سنرحل عنها، يتطلع الجميع إلى المزرعة التي أطعمتنا حين عزَّ الطعام، العيون تدور في المكان بلهفة، كأننا نرغب بالبقاء هنا، ما الذي يدفع الإنسان للبكاء على أشياء ليست مكتملة؟، أبو الشاب القتيل كان ينظر إلى الزريبة ويبكي، ربما فقدانه لابنه هو السبب، هذه هي رحلة الإنسان منذ أن بدأت الخليقة، فيها ما يسرّ النفس وثمة ما يحزنها، ولكن تبقى للأماكن والبيوت نكهتها الخاصة في الذاكرة، نألفها وتألفنا كما يقول

غاستون باشلار، كأنها كائنات لا تُنسى، مضت ساعات على تركنا الصحراء، توغلنا في بساتين النخيل، أقنعْنا الأبَ الذي فقد ابنه بالمجيء معنا، على أن نعود لابنه المدفون هنا بعد الحصول على واسطة نقل نحمل رفاته من القبر المؤقّت إلى المدينة، الضحى يعلن عن وجوده بقوة حيث تسطع أشعة الشمس فوق سعف النخيل الذي نحتمي به ونحث أنفسنا على مواصلة السير بسرعة، مع الغروب يجب أن نصل إلى البيت البديل، لم تكن تلك العرافة مخطئة عندما حذرتني من صعوبة وأخطار الطريق المؤدي إلى الريف، كنت أظن أنها بكلامها عن تلك المخاطر إنما تريد أن تضع معرقلات حتى نبقى معها نؤنس وحدتها في ليل الخلاء، ولكن ما نعانيه الآن ونحن نقطع بساتين النخيل الكثيفة، يؤكد أنها كانت محقّة فيما أخبرتنا به، بين حين وآخر نسمع إطلاق قذائف ورصاص، رأينا شبابا من تلك القرى يتراكضون بين جذوع النخيل والفزع في عيونهم، يحتمون بالترع الجافة التي تذكرنا بالملاجئ الشقية في جبهات الحروب، يلقي الشباب أجسادهم في الترع اليابسة، يمتدّون على الأرض محتمين بالشقوق من سيل الرصاص الذي يمشِّطُ البساتين، شعرتُ أننا ألقينا بأنفسنا في مشكلة أشد خطرا من الصحراء، صرنا بين حين وآخر نضطر إلى إخفاء أجسادنا في شقوق الترع الجافة، أحيانا يمر الرصاص فوق أجسادنا من دون أن نعرف مصدره، نظرتُ إلى أختي وهي تنام في الشق النهري اليابس والى جنبها طفلها، يغفو بهدوء مستكين، لا أعرف ما هو الذنب الذي ارتكبه هذا الطفل حتى ينام في جوف الترعة بدلا من مهده الدافئ!.

تجاوزْنا منتصف النهار، أجسادُنا معفّرة بالتراب، لا نزال نتمدد في الترعة، لا نعرف متى يبدأ أو ينتهي إطلاق الرصاص، الموت كما قالت العرافة مزروع في كل مكان، كانت هذه البساتين خمائل تمنحك كل شيء، تعطيك ثمارها وهواءَها المنعش وجمالها ومع هذا كله تمنحك الأمان، أما الآن فلا تملك شيئا سوى الموت تهدد به كل من يطأ أرضها، أصابنا الرمي المفاجئ بالشلل، شعرنا بالجوع، ساعات متتالية من السيْر المقرون بالخوف، نهضتُ وطلبت من الجميع أن نتقدم سيراً إلى الأمام، سوف يدهمنا الظلام بعد ساعات، علينا أن نستغل النهار، لا يمكن لنا أن نقضي ليلتنا في البساتين، سرنا بين النخيل، دليلنا الذي يتقدم أجسادنا يتفحص الطريق بدقة، مشينا وراءه، كان الأب الذي فقد ابنه ينقل خطواته ببطء، بقي في آخر الركب، يترنح يائسا، سرب من الرجال والنساء يمضي إلى إحدى القرى البعيدة حيث يقع البيت البديل، كان يحدونا الأمل بالوصول قبل غروب الشمس، بدأ الجوع يدغدغ بطوننا وأحيانا يهاجمها، في الأوقات الآمنة يشتعل الجوع، كان معنا قليل من التمر، بدأتُ بتوزيع الحبات القليلة حسب درجة الجوع، لكل شخص ثلاث إلى أربع، واصلنا السيْر في البساتين الكثيفة، وصار لزاما علينا أن نعبر النهر إلى الجانب الآخر ثم نتوغل بين جذوع النخيل بعيدا كي نختصر الطريق، فالمسير بمحاذاة الطريق الرئيس سوف يلحق بنا أضراراً قد تكون كبيرة، أول هذه الأضرار استخدام القوات المتصارعة لهذا الطريق، ويُقال

أنها ترمي كل من يعترض طريقها حتى لو كان خارج دائرة الصراع، ومن أضراره يضاعفُ المسافة ثلاث مرات نحو البيت البديل.

استدار الدليل يمينا ومعه سرب الرجال والنساء، أسرع في خطوه وأسرعنا خلفه، وصلنا القنطرة، لا مفرّ من عبورها إلى الصوب الثاني من النهر ثم نتوغل في البساتين بخط سير مستقيم، هذه القنطرة عبارة عن جذع نخلة دائري قطْرهُ نصف متر تقريبا، يمتد فوق النهر الخالي من المياه سوى برك تخوض فيها الديدان، عَبَرَ الدليل ببطء إلى الجانب الآخر، الخطو فوق هذا الجذع أو القنطرة يستدعي كثيرا من الدقة والتوازن، بدأ أبو الشاب القتيل يحبو على أربع عابرا الجذع كسلحفاة، محال أن يستقيم بجسده ويعبر القنطرة، إنه يترنح على الأرض المستقرة الواسعة، أخذ وقتا مضاعفا منّا حتى وصل إلى الصوب الثاني، بدأ الجميع العبور تباعا، من جديد دخلنا بساتين النخيل، توغلنا في العمق، أخذت علامات الجوع تظهر على الأطفال ثم الكبار، قال الدليل:

ـ يمكننا أن نشتري بعض الخبز من أحد البيوت.

قال آخر:

ـ العطش يحاصرنا أيضا.

قالت أختي:

ـ بناتي جائعات.

أبو الشاب المغدور هو الوحيد الذي بقي على صمته، لم يرغبْ بأيِّ شيء لا ماء ولا طعام ولا كلام، حتى في سيره لم يكن يدقّق في الطريق، أكثر من مرة تعثّر وسقط على الأرض، أحيانا أراه يبكي، ابنه كسر ظهره، أمامنا بضع ساعات ويحلّ علينا الظلام، غذّينا السير بين جذوع النخيل، وحين ابتعدنا سمعت أحدهم يصرخ بقوة:

ـ احذروا القذائف المطمورة، هذه الحقول مزروعة بها.

وأضاف بصوت أعلى:

ـ حاوِلوا أن تقتفوا أثر الأقدام التي سبقتكم.

مثل خيط من النمل رحنا نتبع بعضنا بعضا، نخشى هبوط الظلام، كثافة النخيل تزداد كلما اقترب منا الغروب، حبات التمر منحتنا قدرة إضافية على المشي، أبو الشاب القتيل لم يتناول شيئا من التمر، أسرعْنا الخطو، الأب في آخر الركب، يترنح في مشيته، أحيانا يخرج من خطّ السير يمينا أو شمالا بضعة أمتار، نراه جالسا من شدة الإنهاك، نتوقف عن السير بانتظاره، يؤكد عليه الدليل بأن لا يخرج عن رتل الأجساد، لكنه لا يعبأ بالتنبيهات التي كانت تتوالى عليه، حادي الركب بصره معافى، قال:

ـ حتى لو هبط الظلام سوف نواصل السير، لن نتوقف ولن نقضي الليل في البساتين، سوف يساعدنا ضوء المصباح الذي يعمل بالبطاريات الجافة على رؤية الطريق.

الدليل يحمل المصباح معه، شرع يفحصه بدقة، إنه يعمل بصورة جيدة، لم يكن خط السير واضحا، كان الدليل يبحث عن درب مُداس بأقدام سبقتنا في السير عليه، ولكن لا أثر لمثل هذا الدرب، ولا وجود لآثار الأقدام، نحن نسير في حقول زراعية، نقطعها من المنتصف، أو من أي مكان يشاءه الحادي، مخالفا ما أوصتنا به العرّافة عندما غادرنا الصحراء، قلتُ للدليل:

ـ هل نسيت وصية العرّافة لنا؟

ـ كلا لم أنسَ ذلك.

توقفنا قليلا كي نتوخى الدقة في مسارنا، هل نحن في الاتجاه الصحيح، ألا يوجد درب ترابي فيه آثار أقدام، نعم يوجد درب وحيد عرضه أقل من متر يستخدمه الناس ذهابا وإيابا، لكنه لا يقودنا إلى البيت الُمرام، لأنه ينحرف جانبا ويعود بنا نحو النهر، وهذا يعنى مضاعفة الوقت وتأخير الوصول، قلت:

ـ من الأفضل أن نسلك دربا واضحا ولا نقتحم الحقول المجهولة.

قال الدليل:

ـ ليس أمامنا سوى السير في الحقول؟

قالت أختي:

ـ أنهكنا التعب، بناتي صغيرات على هذا الجهد وأنا تعبت كثيرا. وأضافت:

ـ لا يصحّ أنْ نعود إلى طريق النهر، التأخير ليس في صالحنا.

قال الدليل:

ـ هيا سوف نستمر في خط مستقيم.

العودة إلى طريق النهر تعني مبيتنا في البساتين مع كل ما يحمل ذلك من أخطار، اتفق الكل على قطع الحقول، فهي أمينة ولا توجد مظاهر قتال أو حرب هنا، نسينا كل التحذيرات بسبب التعب والرغبة باختصار الطريق، هبط الظلام كثيفا في غياب القمر والنجوم المغطاة بطبقة من الغيوم السوداء، أمسك كل شخص بالذي يتقدَّم أمامه واستمر النمل بالمسير المتّئد، لم يكن خطْوُنا سريعا، ربما سنصل بعد ساعات، لا أحد منا يمكنه أن يقدّر المسافة المتبقية أو يتكهن بها، فنحن نجهل هذه البساتين وهذه الحقول التي تنتشر فيها نباتات الحلْفاء والأشواك، أبو الشاب القتيل تخلّف عنا عدة أمتار، توقفنا لحظات، عدتُ إلى الوراء، أسندت جسم الأب المنهك وجئت به مع سرب النمل، طلب أحدهم أن يحمله على ظهره، لكن الأب رفض ذلك، الظلام يشتدّ، وهناك إشارات من السماء عن هبوط المطر، ثمة برق يظهر ويختفي يتبعه رعد ينبئ بمطر غزير، إذا أمطرت السماء لن يكون الأمر في صالحنا، أسرعنا الخطو، الدليل وحده يرى طريقهُ بمساعدة ضوء المصباح ونحن نمشي خلفه، دخلنا في حقل واسع فيه كتل دائرية يابسة من الأشواك، برق السماء يشتد، صوت الرعد يعلو ويقترب منا في كل لحظة تمرّ علينا، أختي ترفض السير، تبكي بصمت، عبرات مكبوتة، أنين خفيض، صمت ثقيل يخترقه رعد مفاجئ، خطواتنا مسموعة وهي تخوض في الحقل الأجرد، احتكاك الأرجل مع بعضها وضرب الأقدام على الأرض يُحدث ضجيجا رتيبا، الأجساد تلاحق بعضها، كأنها

في سباق مشي لا نهاية له، في لحظة دوّى انفجار مباغت خلفنا، حدث في الجهة اليسرى من الحقل، انبطحنا جميعا في حركة لا إرادية والتصقت أجسادنا بالأرض، ألسنة نار شبّتْ في مكان الانفجار، صفير شظايا صمَّ أسماعنا، وعَبَرَ أجسادنا عصفٌ ساخن لفح وجوهنا، وعلا صراخ الأطفال، بعد دقائق كأنها دهور، بدأنا نتفحص بعضنا بعضا، باللمس والكلام، الأب هو الوحيد الذي لم يكن موجودا بيننا، صرخ الدليل:

ـ أين أبو الشاب المغدور؟

سؤال أصابنا بالفزع، نهض الدليل وبدأ يتفحصّنا ويتفحص أجسادنا واحدا واحدا، وراح يوجّه المصباح نحو وجوهنا، كأنه لا يثق بأصواتنا كي تثبت أننا أحياء، فعلا لم يكن بيننا الأب، سمعنا أنينا خفيضا خلفنا، طفقت قطرات المطر تتساقط على أجسادنا بغزارة أشد، عدنا إلى الوراء مع الدليل، وانحرفنا إلى الجهة اليسرى من الحقل، وجَّهَ الدليل المصباح نحو مكان الانفجار، لا شيء سوى ألسنة نيران تخبو وتشتعل ثم بدأت تتزايد، رحنا نتقرّب بحذر، رأيت ما يشبه الجسد يتحرك بصعوبة، قلت:

ـ ذاك جسد الأب!.

خطونا إليه، كان مغمض العينين، الطين اليابس يغطي وجهه وملابسه، رجله اليمنى ممدودة بالكامل، واليسرى لا وجود لها، بقعة دم تحت ساقيْه، أنين خافت متواصل يصدر منه، هبط الدليل عليه قُرْبَ قدميه، رفع ثوبه، وجّه ضوء المصباح

على ساقيْه، رأينا رجله اليسرى مبتورة عند مفصل الركبة، الدم يتدفّق من مكان البتر، صرخ الدليل:

- إليَّ بحبل أو قطعة قماش بسرعة.

ربط الفخذ دائريا في أعلى الركبة، شدّ الرباط بأقصى ما يمكن، وضغط على مكان البتر بقطعة قماش من ملابسنا، لم تبدر من الأب سوى كلمة (ابني)، كان جسده ساكنا منطفئا، كأنه ودَّع عالمنا غير مبتئس أو محتج، فبعد أن أكلت ذئاب الحرب فلذة كبده، لم تعد لهذه الحياة قيمة في نظره، طلبتُ بطانية، وأخذتُ المصباح من الدليل، ألسنة اللهب خبتْ في الحقل الذي ابتلَّتْ تربته بالمطر، بدأتُ أبحث في مكان الانفجار، الرماد الرطب يملأ المكان، خيوط من الماء الأسود تسيل على غير هدى، بعد بحث دقيق، رأيتُ الساق المبتورة، منظرها غريب، بدت كأنها ترتجف رغم فصلها عن الجسد، المطر أزاح عنها السواد والدماء معا، أصابع القدم ترفّ كأجنحة طير كسير، بحثتُ عن أي شيء حاد، نحتاج إلى حفرة صغيرة ندفن فيها الجزء المبتور من الساق، المطر جعل الأرض أكثر ليونة، مشّطتُ الحقل بالضوء، رأيت خيال مآتةٍ في زاوية الحقل، خطوت إليه وانتزعتُ الخشبة من الأرض، شذبتها من الملابس المتهرئة المبتلَّة بالمطر، وبدأتُ أغرز رأس الخشبة المدبب في أرض لينة، ساعدني الدليل بإزاحة التراب الأحمر، شرعتْ تتكون لدينا بداية حفرة، واصلتُ نبشها بالخشبة المدببة، وأخذ الدليل يُخرج التراب الرطب منها، لاحظتُ الاحمرار الذي يطغي على التربة، تكونت لدينا حفرة يمكنها أن تخفي

الجزء المبتور من الساق، كفّتْ أصابع القدم عن الارتعاش، بدت القدم المبتورة نظيفة بيضاء تشبه الجسد المغسول توّاً، حملتها وسلّمتها للدليل، أنزلها في الحفرة كما أنزل جسد الابن الذي التهمته الذئاب، تعامل مع الساق كأنه يدفن جسدا متكاملا، رأيت شفتيه تتحركان بسرعة ورتابة، انه يقرأ أو يرتّل أو يقول شيئا ما، ثم بدأ يهيل التراب الأحمر عليها، اختفى الجزء المبتور، وسقطت عليه دمعة، جئنا بإحدى البطانيات، فرشناها إلى جانب الجسد المسجّى، وضعناه فوق البطانية، حملْتهُ أنا من المقدمة حيث يستقر رأسه، وحمله رجل ثان من الطرف الآخر حيث تبرز قدمه اليمنى وحيدة، لم يكن أمامنا غير مواصلة السير، ابتعدنا عن مكان الانفجار، صرنا نخوض في حقول جديدة، المطر يتزايد، الظلام يتكاثف، سمعنا جلبة ولغطا خلفنا لا نعرف لمن، تعالت الأصوات عند مكان الانفجار، حثثنا الخطو على وقع أنين مكتوم اخذ يخفت بالتدريج، لم يعد هناك أنين أو حركة في الجسد مبتور الساق، لاحت بيوت القرية ومن بينها البيت المُرام، فيما أخذت السماء تمطر فوق أجسادنا بغزارة وكرم غير مسبوق.

قيامة الجُثّة

خيّم الليل على جسد المدينة المبقَّع بالدماء، صوت أنين جماعي مكبوت، صرخات مفاجئة، بكاء متقطع، رائحة بارود حادة تخرق وتحرق الصدور، صدى إطلاق رصاص ومقذوفات شتى لا يزال يتردد في جو كابوسي مهيمن، ليس ثمة أضواء من أي نوع كان، لا توجد إشارة واحدة عن وجود حياة هنا، أضأتُ المصباح الذي يعمل بالبطارية الجافة، وجهتهُ نحو الأمام، ورحت أخطو في زقاق يلفظ جسدي خارج مركز المدينة، عند عتبة باب مهمَلة عثرتُ على بقايا شموع وعلبة ثقاب، كانت بعض الشموع ذائبة حتى المنتصف، وأخرى لم يبق منها سوى دموع متجمدة على عتبات البيوت الخالية، دقّقتُ أكثر في البحث، وجدتُ شمعةً كاملة لكنها صغيرة بطول خنصر الكف، وضعتها وبقايا الشموع وعلبة الثقاب في جيبي الذي ضجّ فيه الأنين، خرجتُ من مركز المدينة، بات الآن خلف ظهري، بدت الأحياء السكنية كأنها بقايا مقبرة منكوبة، وكما هو الحال في داخل المدينة، لا يوجد بشر في خارجها، ولا سيارات ولا حراك من أي نوع كان، حتى الهواء تحجّر حولي، الأشجار وأغصانها الخريفية لا تتحرك، كأنها منحوتة من رخام، الكلاب والقطط التي كان يضجّ بها ليل الأحياء غابت هي وأصواتها، واصلتُ السير في شارع عريض وطويل، يقودني إلى حي الأطباء، لا يوجد إنسان ولا حتى حيوان ولا نبات، كأنَّ المدينةَ مضروبة بزلزال عنيف، البيوت مغلقة الأبواب، النوافذ لا

تشف عن أي نور أو حركة لظلّ ما، العبث طال كل شيء، وصلتُ إلى الشارع العام في حي الأطباء، ثم دخلت الزقاق المقصود ورأيتُ البيت الذي قضينا فيه ليالي الرعب والموت، ضجّ أنين الشموع في جيبي، نظرتُ إلى باب البيت الموصد، فاشتعل في رأسي شريط الخوف الذي عانيناه لحظة بلحظة، واصلتُ السير في عمق الزقاق، الظلام يسود بين حين وآخر، السماء غائمة، القمر يطل على الأرض بين قطعة غيم وأخرى، فيضيء المكان لدقيقة أو أقل ويختبئ مجددا خلف الغيم الأسود، صرتُ عند رأس الزقاق من الجهة الثانية، ها هي الساحة المكشوفة التي قُتل فيها الشاب، لم أنسَ المكان الذي خرّ صريعاً فيه، تخيّلتُ نومته في لحظات قتله، كان منكفئا على وجهه كأنه يريد معانقة الأرض، خطوتُ في الساحة، وصلتُ إلى المكان نفسه، انتظرتُ بزوغ القمر من بين الغيوم، بزغ القمر، أرسل حزمة ضوء عمودية نحو الساحة، شعرتُ أنني في خشبة مسرح، سقط الشعاع الفضي على المكان الذي قُتل فيه الشاب، دقّقتُ النظر، ركّزتُ على مكان الجُثَّة بصبر، رأيت بقايا أثر لبقعة دم جافة تدفقت من جبينه ومرّتْ بخدّه نازلة نحو الأرض، بدت بقعة الدم أشبه بلوحة تفاصيلها غامضة موجعة، كأنها ملامح غائمة لجنين يلتّف على نفسه في رحم أمه، جلستُ قرب بقعة الدم أدقّقُ في بقايا الأثر، أتخيّل الجُثَّة التي لا أعرف أين هي الآن، مددتُ يدي أتلمّس مكانها، نتأتْ قطرات دم قليلة يابسة، دقّقتُ أكثر فرأيتُ أثراً لسحب الجُثَّة باتجاه بيت الشيخ المشلول الذي أمّناهُ على الجُثَّة قبل النزوح الجماعي، القمر لا يزال يبثُّ ضوءَهُ، لم يتوغلْ في الغيم بعد،

أخرجتُ بعض الشموع من جيبي، كانت لا تزال تئنّ، قمتُ بتثبيتها على محيط بقعة الدم في مسافات متساوية، وعندما غاب القمر وراء الغيوم وساد الظلام أشعلتُ عودَ ثقابٍ وأضأت أنصافَ الشموع، سطع النورُ في مكان الجُثَّة، ثم تبعتُ أثرَ سحْبِها على الأرض، بدا الأثرُ شحيحا متقطعا بين مسافة وأخرى، وجّهتُ عليه ضوءَ المصباح، خطوتُ معه، قادني نحو بيت الشيخ المشلول، وصلتُ الحديقةَ الخارجية التي تتصدَّر البيت حيث كان يجلسُ الشيخُ المشلول على كرسيّ متحرك يوم نزوحِنا، الأشجارُ العليلة وأغصانُها اليابسة ضاعفتْ من الظلمة، لم أرَ بابَ البيت، أشعلتُ المصباحَ مجدَّدا ووجهتهُ نحو الباب، مررْتُ من بين الأغصان النحيلة المتهدّلة، وصلتُ الباب، طرقتهُ بلطف، لا أظن أنَّ أحداً سيفتح البابَ في مثل هذا الوقت الموحش، أعدتُ الكرَّة مثنى وثلاث، فُتِح الباب في تردّد، خرج منه طفلٌ مراهق في منتصف العقد الثاني من عمرهِ أو أقلّ، رحّب بي بصوتٍ خفيضٍ مرتعد، وكما يفعلُ أولادنا الكرماء دائما، قال:

ـ تفضل أدخل.

شكرْتهُ، ثمّ سألتهُ عن الشيخ المشلول، بقيَ صامتاً كأنهُ فوجئ بكلامي، كرّرتُ عليه سؤالي، فقال متلعثماً:

ـ ماذا تريد من جدّي؟

قلتُ لهُ:

ـ لي أمانة عندهُ.

نشج بغتةً وقال:

ـ جدّي مات.

ثم غطّ في نوبةٍ بكاء... أخذْتهُ بحنو إلى صدري، ترحّمتُ على روحِ جدّهِ، ثمَّ سألتهُ:

ـ ألمْ يخبرْكم المرحوم عن أمانةٍ، (جُثَّة شاب) أودعناها لديه؟

ـ نعم أخبرنا بذلك، تركَ لكم أوراقاً، لأنه لم يكن يستطيع الكلام بسبب الشلل.

ـ ماذا كتبَ فيها؟

ـ طلب منّا جدّي أنْ لا نطَّلِع عليها، أظنّهُ كتب شيئاً ما يخصّكم، سأجلبُ لكَ الأوراق التي تركها لكم.

وقبل أنْ يدخلَ إلى البيت أشار بيدهِ نحو منتصف الحديقة وقال:

ـ ابنكَ يرقدُ هناك، والى جانبهِ جدّي.

غاب الطفلُ في جوف البيت، وجّهتُ المصباحَ نحو منتصف الحديقة، بدتْ تربتُها بلون الدم، رأيتُ كومَ ترابٍ وحيد أحمر اللون، ألمٌ مباغت هاجمَ قلبي، تقدمتُ بخطواتٍ مثقلةٍ بوجع الأرض الدامية، وصلتُ القبر، كومٌ من التراب الأحمر فوقه علامة من الخشب، دققتُ النظرَ في الشاهدة، لمْ ألمحْ اسمَ الشاب القتيل، الكلمات المكتوبة فيها تحملُ اسماً مختلفاً، ربما هو اسم الشيخ، كانت الشاهدةُ تحْملُ سنّاً كبيراً يتجاوز سنَّ الشاب بكثير، قرفصتُ قبالة القبر الوحيد، وضعتُ يدي على رأسهِ، أحسستُ بشَعرِهِ ناعماً بارداً، التراب أيضا كان بارداً كأنّهُ الصقيع، تكاد أصابع كفّي تتجمّد، تحدثتُ إلى القبر بما أريد بعد أنْ أقنعتُ نفسي بأنّهُ قبر الشاب الذي

ابحث عنه، اعتذرتُ لهُ عن موتهِ وهو في ريعان الشباب، سمعتهُ يئنّ، صوتهُ كان حانقاً، قال:

ـ لن أقبلَ اعتذاركم، أنتم من غدرَ بنا، لمْ تحافظوا على أبنائكم، أنتم آباؤنا القتلة.

وضعتُ يدي على التراب الدامي، أخرجتُ الشمعةَ التي بطول الخنصر من جيبي، ضجَّ عويلها أكثر، ثبّتُّها على قبرِ الشاب في التراب، أخرجتُ علبةَ الثقاب وأضأتُها، تصاعدَ أنينها، فجأة بزغَ كومُ ترابٍ آخر ثم اختفى باللحظة نفسها في الظلام، أضأتُ شمعةً أخرى وغرزتُها في القبر الذي أصبح مجموعة قبور، الحديقة ضجّت بأصوات الأنين، تمازج أنين الموتى وأنين الشموع، وتكدّستْ فيها قبورٌ وقبور، أخرجتُ بقايا الشموع كلّها من جيبي، أضأتُها، صارت الحديقةُ المقبرة بستاناً من النور، وتخافت الأنين، كانت دموعُ الشموع تهمي بغزارة، لكنّ الأشجارَ شرعتْ تستعيدُ عافيتها، رأيتُ الأغصانَ تنمو، أوراقُها تتبرْعم وتخْضرّ، باتت الآن تغصُّ بالأوراق الحيّة، حتى رفْرفة أجنحة العصافير فاجأتْني، ثمَّ ما لبث أنْ هبَّ نسيمٌ حزينٌ مرّ من خللِ الأشجار التي طفقت تردّدُ نشيدَ الألم، خرج الطفلُ المراهقُ من البيت وفي يدهِ مجموعة أوراق، خطا نحوي، سلّمني إيّاها، وجّهتُ الضوءَ على سطورها، سألتهُ مرتاباً:

ـ إنهُ قبرٌ واحد يا ولدي؟

فزّ الطفلُ مرعوباً، كأنّهُ استفاق من كابوس، قال:

ـ ألمْ ترَ القبرَ الثاني؟، ها هو، انظرْ جيداً.

وأشار إلى وسطِ الحديقة، وجّهتُ المصباحَ نحو مركز الحديقة، لمْ أرَ قبراً ثانياً، إنّهُ قبرٌ واحد، يتحوّل في لحظات إلى مقبرةٍ شاسعة تغصُّ بكلّ الأعمار، تلقّفتُ حزمةَ الأوراقِ منه، علّني أعثرُ في الأوراق على قبر (الشاب)، بدأتُ أقرأ المستهلّ بين قوسين في أعلى الصفحةِ الأولى بشيء من التركيز:

(أمانة على أفرادِ عائلتي أنْ تصلَ هذه الأوراق إلى أهلِ الشاب المغدور) ....

ثم واصلتُ قراءةَ ما كتبهُ الشيخ:

تلك المرأةُ التي قبَّلتْ يدي وهبطتْ على قدمي كسرتْ ظهري بأمانتها، أقصدُ جُثَّة الشاب القتيل، لابد أنّها أمهُ، أثقلتْني بهذه الأمانة حين نزوحهم وأنا رجلٌ مشلول كسيح، أجلسُ على كرسي متحرّك، أديرُ عجلتهُ بيدٍ واحدة، فيسير بي كالسلحفاة، ليس معي أحد في الدار، أفرادُ العائلة فرّوا بأرواحِهم العزيزة، ولكي أحافظَ على الأمانة لابدّ أنْ أنقلَ جُثَّة الشاب من الساحة إلى حديقة بيتي كي ندفنَها في تربتها بأسرع وقت، المسافةُ بين الجُثَّة والحديقة ليست قليلة، في عصر ذلك اليوم الذي نزحَ فيه الناس جميعاً، تحركتُ بالكرسي نحو الجُثَّة، كنتُ قد هيّأتُ بعضَ لوازمَ هذه الرحلة المحفوفةِ بالفشل، أشياء بسيطة لكنها مهمة، حبل غير قابل للقطع بسهولة، عصا قوية ورثتُها من أبي، منشفة وهي موجودة معي دائما، كذلك تأكدتُ من وجود القلم والأوراق في أسفل الكرسي، مددتُ ذراعي الوحيدة إلى العجلة، أدرتُها بصعوبةٍ كالعادة، شرعَ الكرسي السلحفاة ينقلني إلى هدفي ببطء، لا وجود لبشرٍ هنا، فرغ الحي من سكانهِ، غادرهُ الكلّ صوب أماكن أخرى،

رسمتُ في بالي أنْ أدفنَ الجُثَّة الأمانة في حديقة بيتي حتى تكون تحت رعايتي، أخذتْ مني المسافة التي تفصلني عن الجُثَّة ما تبقّى من ساعات النهار، وصلتُ الشابَّ القتيل بعد الغروب، صرتُ إلى جانب الجُثَّة، ربطتُ الطرف الثاني من الحبل في ذراعِ الشاب الميت بصعوبة بالغة، وكنتُ قد ربطتُ طرفهُ الأول في الكرسي، رحتُ بكلّ ما تبقّى في جسدي ويدي الوحيدة من قوة أديرُ عجلةَ الكرسي متوجهاً نحو الحديقة، عرفتُ أنَّ عملي هذا عبثٌ في عبث، الجُثَّة لا تتزحزح من مكانها، خفتُ من الكلاب التي ستهاجم الجُثَّة ليلاً، ستعبثُ بها، بل ستقطّعها إرباً، بقيتُ ساكناً إلى جانب الجُثَّة، ضَعفَ جسدي، العطشُ حاصرني والجوع، بحثتُ في أسفل الكرسي فوجدتُ قنينةً صغيرة ممتلئة بالماء إلى النصف، فتحتُ غطاءَها بيدي الوحيدة، أخذتُ جرعةً قليلة، قررتُ أنْ أبقى إلى جانب الجُثَّة حتى الصباح، مضى وقتٌ ليس بالقليل، شعرتُ بالجزع، بدأتُ أدير العجلةَ بذراعي الوحيدة بكلّ ما أملكُ من قوة، تحرَّكت الجُثَّة نصفَ متر تقريباً ولكن بصعوبة بالغة، ثم نبتتْ في الأرض ولمْ تتزحزح مرة أخرى، بيننا وبين الحديقة مسافة ليست قصيرة، الوصول إليها بهذه الطريقة بات مستحيلاً، هجعتُ في الكرسي من دون حراك، كانت معي عصا أبي أستند عليها أحيانا كي أحرّك جسدي يميناً أو شمالاً في وضع الجلوس، لاحتْ ثلاثةُ كلابٍ تتقدم نحونا، أخذتُ أهمهمُ كأنني أستحثُّ نفسي أو شخصاً ما كي يساعدني على ردعِها، أمسكتُ بالعصا بكفي الوحيدة، ليس أمامي سوى الدفاع عن الأمانة وعن نفسي،

تذكّرتُ كيف كان يمسكُها أبي وهو يحميني من الكلاب عندما نقطع دربنا فجراً إلى المزرعة، بدأ أحدُ الكلاب يتقرّبُ مني ويعوي جوعاً أو مرضاً، رحتُ أضرب على حديد الكرسي، أحدثتُ صوتاً مسموعاً كي أبعدَهُ أو أحدّ من تقدمهِ، بالفعل توقّف في مكانهِ، ثم استدار وخطا نحو الكلبين، ضوءُ القمر المتقطّع ساعدني على رؤية الأشياء بالعين الكليلة التي تبقّتْ لي، ليلُ الشتاء الطويل لا يزال في أولهِ، إذا بلغتُ الفجرَ سالماً أنا وجُثَّة الشاب، ربما سأجدُ من يعينني في النهار على نقلها ودفنها، أخذتُ رشفةً من الماء وشعرتُ بالجوع، غطّيتُ رأسي وجانبيّ وجهي بمنشفةٍ أحملها في حضني دائماً، بدأ عدوٌ آخر يضايقني، النعاس، يؤازره التعب والإجهاد وضعف القلب وصعوبة التنفس، الكلاب الثلاثة لم تبتعد عنا كثيراً أنا والجُثَّة، إنها تتجول قرب مكان قديم تُلقى فيه القمامة، تشمُّ الأرض بلا طائل، لا يوجد فيها شيء يؤكَل، الناس كلّهم فرّوا من بيوتهم، الكلب الجائع طفق يعوي، عاد من جديد يتقرّب مني ومن الجُثَّة، هذه المرة رافقهُ كلب آخر أسود كريه الشكل، هززْتُ العصا التي باتت أثقل مما كانت عليه، طوَّحتُ بها في الهواء، ضربتُ على حديد الكرسي، كان الصوت شبه خافت، لا يخيفُ الكلبين، واصلا سيرهما باتجاه الجُثَّة تحت بقعة الضوء التي يرسلُها القمر من خلل الغيوم، أخذا يدوران حولنا في دائرة نصف قطرها عشرة أمتار تقريبا، همهمةٌ عالية صدرتْ مني، صراخٌ أو نوع من الحشرجة الساخطة، ضربتُ الأرض بالعصا، نصفي المشلول كأنّهُ حجرٌ أصمّ، فتح الكلبان فميْهما، هاجمتني رائحةٌ كريهة، بانت

الأنياب الجائعة أو ربما تخيّلتها، لم أعدْ متيقّنا من شيء، الموت صار قاب قوسين منّا، الجُثَّة قد تتعرّض للقتل مرة أخرى، طرقتُ الكرسي بالعصا وأخذتُ أحرّكهُ بشكلٍ دائريّ، شرعتُ أضرب الأرض بقدمي الوحيدة بقوة، أكرّرُ ضرب الحديد، أهمهمُ بصوت بات يعلو وحيداً في هذا الصمت الليلي الدامي، غادر أحدُ الكلبين، بقيَ الكلب الأسود، أخذ يتقدَّم نحو الجُثَّة باتجاه القدمين، تركتُ مكاني عند الرأس إلى قدميّ الجُثَّة، هززتُ العصا في الهواء، همهمْتُ بقوة وبأس ناقم، ضربتُ الحديد مرة أخرى، استدار الكلب الأسود، كأنهُ شمَّ رائحةَ التصميم في كياني كله، قررتُ الصراع معهُ حتى النهاية، سأقتلهُ لو دنا من الجُثَّة، لكنهُ انسحب أخيراً، تنفستُ الصعداء، رشفتُ قليلاً من الماء، حاولتُ أنْ أحميَ رأس الجُثَّة، دفعتُ الكرسي عند الرأس مباشرة، كان وجهي يتّجه نحو رأس الجُثَّة وظهري إلى بيتي، فعلتُ هذا عندما أخذ النوم يحومُ حول عيني الوحيدة، غلبني النعاس، غفوتُ قسراً، وما بين النوم والصحو سمعتُ هديراً قوياً يقتربُ مني، فتحتُ عيني الوحيدة فرأيتُ سيارةَ حمْلٍ تقتربُ مني، ضوءُ مصابيحها يكاد يصيبني بالعمى، توقفتْ إلى جانب الجُثَّة وهبط منها هيكلٌ ضخم يرتدي معطفاً سميكاً من الصوف، سلّم عليّ بلثغة غامضة، فتمتمتُ مؤشِّراً أنني لا أستطيع الكلام، أضاءَ مصباحاً في يدهِ، وجَّهَهُ نحو الجُثَّة ثم تابع بالضوء الحبل المربوط من طرفيه بين الجُثَّة والكرسي، حاول أنْ يفكَّ الحبل من ذراع الجُثَّة فصرختُ بهلع راجياً منه بالإشارة أنْ لا يفعل ذلك، ثم أخذتُ ورقةً من أسفل الكرسي وكتبتُ له:

ـ إنه ابني قُتِل برصاصة طائشة وأريدُ أنْ أدفنهُ في حديقة البيت حتى عودة الأهل النازحين.

قرأ الهيكل الضخم ما كتبتهُ له، تركني وعاد إلى السيارة، كنتُ في رهبةٍ من الأمر، تمنيتُ أنْ يتركوني وشأني، خشيتُ أن يصادروا الأمانة مني، ربما لديهم أوامر بذلك، كانوا يجوبون الأحياء السكنية والمناطق التي حدث فيها مواجهات، يجمعون الجثث ثم لا أحد يعرفُ مصيرَها، لم يترْكني الهيكلُ الضخم وشأني، عاد إليّ، سألني:

ـ هل هو ابنكَ فعلاً؟

أجبتهُ كتابةً:

ـ نعم.

ـ هل لديكَ ما يُثبتُ ذلك؟

كتبتُ له:

ـ كلا، أهلنا غادروا المدينة وأخذوا معهم الوثائق.

ذهب مجدّداً إلى السيارة، تصورتُ انه اقتنع بكلامي لكنهُ عاد لي مرة أخرى، وقال:

ـ مدير العمل يؤكّد انهُ ليس ابنكَ.

كتبتُ له:

ـ أقسمُ بالله هو ابني.

ـ لكنَّ المدير أمر أنْ نحملَ الجُثَّة معنا في السيارة، لديه أوامر صارمة بذلك.

بكتْ عيني الوحيدة، وشعرتُ أنني أشارفُ على الهزيمة والموت بعد أنْ نجوتُ من الكلاب، عندما رأى الهيكل الضخم دمعتي، تحركَ إلى السيارة، تكلّمَ مع مديرهِ، ثم عاد لي، وقال:

ـ يمكنك الاحتفاظ بالجُثَّة، ولكن عليك دفنها بأقصى سرعة، سوف نعود في الصباح إذا وجدناها هنا سنصادرُها منكَ.

بكفّي الوحيدة تشبثتُ بيَدِ الهيكل الضخم، دنوتُ بفمي منها كي أقبّلها، سحب يدهُ وغادر إلى السيارة، وقبل أنْ يصلَ إليها قال:

ـ هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟

همهمتُ من بعيد، لكنه لمْ يفهمْني، تقرّبَ مني فكتبتُ له:

ـ فقط ساعدني بنقل الجُثَّة إلى تلك الحديقة. (وأشرتُ له نحو حديقة بيتي).

نزل رجلان آخران من السيارة الكبيرة، حملا الجُثَّة بعد أنْ فكّا عقدةَ الحبل من الذراع، وضعاها في جوف السيارة، في تلك اللحظة راودني هاجسٌ مرعب بأنّهم سوف يصادرون الجُثَّة مني، وأنّ السيارة سوف تسرع بها إلى مكان مجهول، تحركت السيارة بسرعة، استدارتْ نحو الجهة المعاكسة لبيتي، أخذوا الجُثَّة معهم وغابوا في لجّة الظلام.

المحتوى